الفصل التاسع

آسيا الوسطى ابان حكم جنكيزخان وسلالته

١ ـ غزوات جنكيزخان وتأسيسه دولة المغول

نتيجة للحروب الكثيرة الضارية التي شنها جنكيزخان (١١٥٥ ـ ١٢٢٧م)، ضد القبائل التترية ـ المغولية[١] في منغوليا، وضد شعوب سيبيريا والتاي وايغوريا[٢] الناطقة باللغة التركية، أي الكارلوك والنيمان والقيرغيز والإيغوار وغيرهم، في الفترة من العام ١١٨٨ إلى ١٢٠٦، تمكن من اقامة دولة اقطاعية جديدة، كتب لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ شعوب آسيا المركزية والوسطى والصين وإيران وأفغانستان وأذربيجان والعراق وروسيا وجنوب شرقي أوروبا. وبالتالي، وفي الفترة ما بين ١٢٠٥ ـ ١٢٢٧م، قضى جنكيزخان على دولة سي ـ

---

١ ـ «التتر» و«المغول» تسميتان مترادفتان. فحتى القرن ـ ١٢م كانت كل القبائل التركية المغولية القاطنة في منغوليا الشرقية تعرف بالتتر، ومنذ بداية القرن ـ ١٣م، ومع ازدياد عظمة المغول اكتسبت تسمية عامة مشتركة: «مغول». وحري بالذكر أن كتاب الشرق قسموا التتر الى ثلاث مجموعات عرقية: «بيضاء»، «سوداء»، «بربرية». أطلقت «البيضاء» على التتر الرحل القاطنين جنوب سهوب «غوبي» والذين كانوا في خدمة تشجورتشجيني. وكانت غالبيتهم العظمى من قبائل الـ «اونغوت» التركية والـ «كيدان» المغوليين. أما «السوداء» فهي القبائل التترية مثل الـ «كيرايت والنيمان» المتنقلة ما بين جبال الصين وشرقي تركستان، أما «البربرية «فهي قبائل الميركيت (او ـ ميكريت) أويرات واوريانخاي، التي عاشت في جنوب سيبيريا.

٢ ـ ايغوريا: حسب المعطيات التاريخية، تطلق على شمال شرقي تركستان حيث تقع مدن كاشغار، تورفان، كاراخوجا، كومول (او خامي كما ورد لدى المؤرخين الصينيين) والمناطق الممتدة جنوب شرقي مدينة «كولجي».

حسبما يفيد المصدر الصيني - من دون إراقة دماء. ويفيد المصدر نفسه، أن خاسماييل (اسماعيل) حاكم مدينتي كاسان وباسيخا (اخسيكيت)، آنذاك، باسم الغورخان الكاراكيتائي، ومن ثم باسم الكوتشلوك النيماني، قد خرج مع وجهاء هاتين المدينتين لاستقبال جيني - نوين، وأعرب عن ولائه للمغول، الذين وعدوهم بحسب ما أعلنه جيبي - نوين، بأن السكان كافة سيتمتعون بحرية الأديان إذا أعلنوا ولاءهم. لكن مدن فرغانة الأخرى مثل انديجان وخوقند (خواكينت المصادر باللغة العربية) قاومت المحتل مقاومة عنيدة. وقد بقيت هذه المدن في حالة دمار مدة طويلة. فمثلاً، لم تتم إعادة بناء أنديجان إلاّ في نهاية ق - ١٣م، وعلى يد جغتاي دوفا - خان (١٢٩١ - ١٣٠٦)، كما بقيت خوقند دون أسوار واستحكامات ومعدات دفاعية حتى عام ١٧٤٠م.

كان جنكيزخان إبان حياته (١٢٢٧م) قد وزع أمبراطوريته العظيمة على أبنائه: جوتشي وتشاغاتاي واوغيدي وتولوي.

لقد نال الابن الأكبر - جوتشي - الأراضي الممتدة من نهر ارتيش شرقا وصولاً إلى تلك الأماكن «التي وطأتها الخيول المغولية» (كما ذكر جنكيزخان نفسه) غرباً، ومن ضمنها الحوض السفلي لنهر سرداريا الذي يضم مدينة غورغيانج. كان مقر جوتشي الصيفي على ارتيش، أما الشتوي، فقد كان في مكان ما في الحوض السفلي لسرداريا. وفي وقت لاحق، في عهد باتو (١٢٢٧ - ١٢٥٥م)، قام جوتشي بتوسيع حدود دولته باحتلال حوض الفولغا والأراضي الروسية.

وكانت دولة مترامية الأطراف من الصعب تعيين حدودها بدقة. ويحددها أ. ي. يعقوبوفسكي البحاثة الكبير، الذي درس تاريخ الاورطة الذهبية على النحو التالي: «كانت الاورطة الذهبية تتألف من بلغار والاقليم التابع لها في الجهة الشمالية الشرقية، وتجتاز حدودها، شمالاً، الامارات الروسية، وجنوباً تتألف من القرم ومدنها الساحلية من جهة، والقوقاز حتى دربند من جهة أخرى، وحتى باكو احياناً، وكذلك شمال خوارزم مع مدينة اورغينتش، وغرباً السهوب من دينسر وما وراءها، وشرقاً حتى غرب سيبيريا والحوض السفلي لسرداريا». كانت عاصمة الاورطة

سيا (والتي كانت تعرف أيضاً بدولة «تانغوت»، وظلت قائمة من العام ٩٨٢م الى ١٢٢٧م، في منطقة غاسنو الصينية حالياً والجزء الغربي من شانسي) وأمبراطورية تسزين (او دولة تشجور تشجيني) التي ظلت قائمة منذ العام ١٢١١م الى ١٢٢٧م، فارضة سلطتها على شمال الصين وشمال شرقها.

وبعد ذلك، وبدعم من أتراك التاي وسيبيريا، اتجهت أنظار التتر ـ المغول وجنكيزخان إلى دولة الخوارزميين العظيمة آنذاك. وفي طريقهم الى آسيا الوسطى دمروا بقايا قوات الكاراكيتاي ونيماني كوشلوك.

وفي الفترة من العام ١٢١٩ إلى١٢٢٤م، استطاع جنكيزخان القضاء على الحاميات المتفرقة في أترار، وبيناكيت، وخوجيند، وبخارى، وسمرقند، وغورغيانج، وترمذ، وبلخ ومدن آسيا الوسطى وخراسان التابعة للخوارزمشاه علاء الدين محمد (١٢٠٠ ـ ١٢٢٠م)، وفرض سيادته على آسيا الوسطى وخوارزم. لقد سلطت الأضواء، بصورة كافية، على هذه الأحداث في المؤلف الذي وضعه الاكاديمي ف. ف. بارتولد بعنوان «تركستان ابان الغزو المغولي»، حيث يستطيع القارئ الحصول على الأجوبة حول جميع المسائل المتعلقة بهذه الكارثة العظيمة التي ألمت بالعديد من البلدان والشعوب. ولذا نرى أن لا ضرورة للتوقف مرة أخرى عند هذه القضية بالتفصيل، ونكتفي بالتحدث عن سير هذا الغزو بكلمات موجزة.

غزو التتر المغول لآسيا الوسطى

يستدل بالمعلومات الموجزة المقتضبة، الجديرة بالاهتمام، والواردة في «ملحق اضافة الى الصراخ» لجمال الدين الكارشي، «الاسطورة المغولية»، «يوان ـ شي» لِـ بلانو كاربيني، على أن التتر المغول اجتاحوا آسيا الوسطى عبر اترار وسرداريا وعبر كاشغار وفرغانة.

تجدر الاشارة هنا، الى أن قوات جنكيزخان احتلت فرغانة قبل بيناكيت وخوجيند بفترة طويلة. وكان عدد من مدنها، مثل كاسان واخسيكيت، قد احتل ـ

العسكرية، واحصاء السكان وجمع الضرائب والاموال، فكانت في أيدي الامراء المغول المعينين لهذا الهدف، والذين يطلق عليهم دارو خاتشي وتانماتشي[٤]. وقد أورد المؤرخ الايراني المعروف «وصاف» أسماء عدد منهم: خزار- بوكي، تشينسانغ - تايفو وبوكا - نوشا، ممَّن كانوا يقيمون إبان عهد اوغيدي - كانا (١٢٢٧ - ١٢٤٢م) في نخشب وسمرقند وبخارى. ولكن يستدل من معارضة محمود يالافاتش لقائدي الخان ايلديز - نويونو - خورتشي العسكريين، اللذين قضيا على ثورة محمود ترابي الشخصية المعروفة (لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر أدناه)، ومنعه إياهما من سلب بخارى ونهبها وارتكاب المجازر وإبادة أهلها، يستدل من ذلك كله أن الحاكم المدني (محمود يالافاتش، مسعود بيك) كان يتمتع بسلطة كبيرة في اولوس تشاغاتاي، وأن الولاة (او الحكام) [داروخاتشي وتانماتشي] كانوا ملزمين بالامتثال لإرادته. وبالفعل كانت السلطة المدنية (الحاكم المدني) أعلى من الحاكم العسكري في الـ «اولوس». وفي هذا الصدد، نود الاشارة إلى القصة التالية التي سردها رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨م)، وجاء فيها: «يقال، إنه في عهد اوغيدي خان كتب تشاغاتاي رقعة انتقل بموجبها جزء من مناطق ما وراء النهر، التي كانت قد منحت بموجب أمر الخان لمحمود يالافاتش، إلى شخص آخر. ولما أوضح يالافاتش الأمر للخان، أرسل الأخير رقعة استفسار إلى تشاغاتاي، وطلب منه كتابة الرد، فرد تشاغاتاي: «لقد ارتكبت خطأ نتيجة عدم تفكيري، وماذا يمكنني أن أكتب رداً على ذلك، وبما أن الخان أمرني بالرد، فقد تجرأت على ذلك وكتبت كل هذا». أعجب الخان بذلك، وقبل اعتذاره ومنح تلك المنطقة إلى الاينجو تشاغاتاي. وبعد ذلك، حينما قدم محمود يالافاتش إلى تشاغاتاي، استجوبه الأخير ووبّخه. وهنا قال محمود يالافاتش لوزير تشاغاتاي، حبش أميد: «اودّ محادثتك على انفراد». ولما انفرد أحدهما بالآخر قال له محمود: «أنا نائب الخان ولن يقتلني تشاغاتاي من دون استشارتك، ولكن إذا ما شكوتك اليه، فانه سيأمر بقتلك. أما إذا سويت الأمر، فإن ذلك سيكون أفضل، وإلا وشيت بك إلى الخان كي يعدمك، وإذا

---

٤ - داروخاتشي: قائد عسكري مغولي كان يقود فوجاً يتألف أفراده من الشعوب المنتمية إلى القبائل الأخرى، تانماتشي: مساعد الـ «داروخاتشي» وتكمن مهمته في القوات.

الذهبية في عهد باتو، هي باتو ـ سراي (سراي القديمة) الواقعة مكان «سيليتريتي ـ حالياً» القريبة من استراخان، وفي عهد الخان بيرك (١٢٥٧ ـ ١٢٦٧م) ـ سراي ـ بيرك، الواقعة على اختوب، أحد فروع نهر الفولغا.

كانت دولة تشاغاتاي ذات مساحة شاسعة مترامية الأطراف. وكانت، في بادئ الأمر، تقتصر على جميع الأراضي، الممتدة من اويغوريا شرقاً وحتى سمرقند وبخارى غرباً. ومن ثم ضمت إليها المناطق الشمالية من افغانستان الحالية حتى معابر جبال هندوكوش. أما ميرزا اولوغ بيك فيحدد حدود دولة تشاغاتاي بصورة أكثر دقة: «تورانزامين من كاشغار وبداية أراضي الاويغور إلى ضفاف نهر جيحون، الذي يعد الحد الفاصل بين ايران وتوران، مع جزء كبير (مناطق) من بلخ، باداخشان وكابول وغزنة حتى نهر السند».

كانت منغوليا وشمال الصين قد أعطيتا إلى تولوي ـ خان، أصغر أبناء جنكيزخان.

وفيما بعد، قام هولاكو ـ خان، حفيد تولوي، في العام ١٢٥٦م، بتأسيس الدولة الهولاكية (او دولة الايلخانيين) الرابعة، من ايران واذربيجان، ودامت زهاء ١٠٠ سنة (١٢٥٦ـ١٣٥٣م).

٢ ـ دولة تشاغاتاي (أوجغتاي)

بناء على المصادر التاريخية، لم يكن تشاغاتاي يحكم بلاده كحاكم مطلق الحرية والسلطات، بل كمالك (صاحب) اينجو[٣] فحسب، أما السلطة الحقيقية على اتحاد قبائل الـ «اولوس»، حتى «الغو» (١٢٦١ ـ ١٢٦٦م)، فكانت في قبضة الخان الاعلى، الذي باسمه كانت السلطة المدنية هناك، يمثّلها الخوارزمي المشهور محمود يالافاتش (محامودي خولاسيما ـ حسب المصادر الصينية)، وبعد نقله الى الصين (بعد العام ١٢٣٩م) حل محله ابنه مسعود بيك (المتوفى عام ١٢٨٩م). أما السلطة

٣ ـ اينجو: القوات العسكرية والاراضي والفلاحون الذين يعيشون عليها، تعود ملكيتهم لافراد اسرة جنكيزخان.

خان، على عرش الامبراطورية المغولية، بعد المؤتمر المغولي العام الذي انعقد في كاراكوروم - عاصمة الخانات المغوليين الأربعة الأوائل (جنكيزخان، اوغيدي، غويوك - خان ومنغو - خان) الواقعة على نهر أورخون، وذلك بناء على مبادرة باتو - خان عام ١٢٥١م. والجدير بالذكر، هنا، أنه فور انتهاء المؤتمر والتتويج الرسمي للخان الجديد (منكي)، وبناء على مبادرة باتو - خان نفسه، جرت محاكمة كل الذين عارضوا إرادة باتو - خان. ونقلاً عن الجويني ورشيد الدين، نفذ،بموجب قرار المحكمة، حكم الإعدام بـ ٧٧ من ابرز الأمراء، ومن ضمنهم الامبراطورة الآنفة الذكر «اوغول - غايمشي»، وكاداغاتش خاتون والدة شيرامون . وأعلن عزل يسو - منكي، وجرى تعيين كارا - هولاكو السالف ذكره على قبائل أولوس تشاغاتاي، إلا أنه لم يصل إلى مكان تعيينه، إذ توفي في الطريق في مكان ما في التاي. ورغم ذلك وصلت قواته إلى مقر يسو - منكي، ثم خطف الاخير وأرسل إلى باتو - خان. بعد ذلك، في اولوس تشاغاتاي، عينت ايرغيني - خاتون (إبنة أريك - بوغي وأرملة كارا - هولاكو) مع ابنها الحدث مبارك - شاه، الذي توج رسمياً عام ١٢٦٦ في وادي تشيرتشيك في آخانغران. لكن السلطة الفعلية كانت بيد باتو - خان ومكني - خان، يمارسها باسمهما مسعود بيك.

وهنا نود الاشارة إلى ما ذكره الرحالة فيلغيلم روبروك، الذي زار (حوالي العام ١٢٥٠م) قصر الخان المغولي في كاراكوروم، ونص على أن الامبراطورية المغولية كانت بأسرها محصورة بين منكي - خان وباتو - خان.

باختصار، بعد مؤتمر عام ١٢٥١م الآنف الذكر، انقسمت دولة (أولوس) تشاغاتاي إلى قسمين: تركستان الشرقية، إقليم كولجين، وسيميريتشي، والجزء الشمالي الشرقي من فرغانة - على ما يبدو - أصبح خاضعاً لسلطة الخان، أما ما وراء النهر والجزء الغربي من فرغانة وخوارزم فقد خضع لسلطة الاورطة الذهبية. وكانت الحدود - نقلاً عن الرحالة فيلغيلم روبروك السالف ذكره - بين مملكتي منكي وباتو - خان، تمر في السهوب بين تالاس ونهر تشو، شرقي سلسلة الاسكندر المشهورة.

نقلت كلماتي هذه إلى الخان، فإنني سأنكر ولن أعترف مهما عذبني، ولا تنس أنه ليس لديك أي شاهد». وهكذا اضطر الوزير لتسوية الأمر. ان الفقرة التي أوردنا لغنية عن التعليق والتفسير. كان محمود يالافاتش وخليفته مسعود بيك من ولاة الخان الأعلى، أما تشاغاتاي فما كان يتمتع إلا بالحصانة التي تخوله عدم دفع الضرائب.

وسرعان ما نقل محمود يالافاتش، في العام ١٢٣٩م، إلى الصين حيث عين محافظاً، أما بيشباليك وكاراخوج اللتان تتألف منهما ممتلكات اويغوريستان، من خوتان وكاشغار، والماليق وكياليك وحتى سمرقند وبخارى وضفاف جيحون فقد مُنحتا لابنه مسعود بيك.

كانت الأوضاع السياسية في أولوس تشاغاتاي قبل حكم الخان كيباك (المرة الاولى ـ في العام ١٣٠٩م، المرة الثانية ـ ١٣١٨ ـ ١٣٢٦م) غير مستقرة، إذ لم يدم طويلاً (١٢٤١ ـ ١٢٤٧م) حكم كارا ـ هولاكو، حفيد تشاغاتاي وابن موتوغين الذي قتل عام ١٢٢١م أثناء محاصرة جنكيزخان لـ «باميان»، وأطاح به غويوك ـ خان (١٢٤٦ ـ ١٢٤٩م)، الذي أجلس على عرش اولوس (دولة تشاغاتاي) صديقه يسو ـ منكي، ابن تشاغاتاي. على أن يسو ـ منكي، شأنه شأن الكثير من خانات اسرة تشاغاتاي، كان مدمناً على الخمر، ولم يشارك في إدارة شؤون البلاد.

وكانت السلطة بأسرها في قبضة زوجته توكاشي (توغاشي) والوزير المسلم بهاء الدين المرغلاني، ابن شيخ الاسلام المرغلاني.

بعد وفاة غويوك ـ خان (في العام ١٢٤٩م وهو في طريقه إلى إميل) نما وتعاظم، بشكل ملحوظ، دور «باتي» في الحياة الاجتماعية السياسية للامبراطورية المغولية. وفي العام ١٢٤٩م، قام باتو ـ خان بإجلاس اوغول ـ غايميش، أرملة غويوك ـ خان، على العرش وعين لها وزيراً أو «يغور» مسيحياً يدعى «تشينغاي»، الذي عمل، سابقاً، سكرتيراً لدى اوغيدي ـ خان. إلا أن مثل هذا القرار لقي معارضة من جهة الأمراء من سلالة اوغيدي، الذين حظوا بمساندة حاكم اتحاد قبائل اولوس التشاغاتاي (١٢٤٧ ـ ١٢٥٢م). وعندئذ قرر باتو ـ خان إجلاس منكي، ابن تولوي ـ

وزعيم الاورطة الذهبية مينغو ـ تيمور (١٢٦٧ ـ ١٢٨٠م). ونال باراك ـ خان ثلثي ما وراء النهر فقط.

لم تجر أحداث مهمة تذكر إبان حكم نيكباي (حوالي ١٢٧١ ـ ١٢٧٢م) وتوغا ـ تيمور(حوالي ١٢٧٢ ـ ١٢٩١م). بعدها أجلس خايدو ـ خان على عرش اولوس تشاغاتاي دوفا ـ خان، ابن باراك خان (حوالى ١٢٩١ ـ ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م)، الذي ترتبط باسمه ـ كما ذكرنا آنفاً ـ إعادة تعمير انديجان وجعلها عاصمة لفرغانة. كان خايدو ـ خان حليفاً وفياً للخان (خايدو)، وشاركه في الحروب التي خاضها داخل منغوليا، وتدخل في الحروب الداخلية في آك ـ اوردا[٥]، وبعد وفاة خايدو (ربيع ١٣٠١م)، حظي بسمعة حميدة لدى خليفته تشابار.

وحري بالذكر أن دوفا ـ خان كان المؤسس الحقيقي والفعلي لدولة تشاغاتاي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

بعد وفاة دوفا ـ خان، دبت الخلافات والفوضى مجدداً في اولوس تشاغاتاي. ان فترة حكم كونتشاك ـ خان، ابن دوفا ـ خان، الذي نودي به خاناً قرب الماليق، في منطقة سايكو ـ بالا في العام ١٣٠٦م وتالغو، ابن كاداكا بن بوري بن موتوغين بن تشاغاتاي؛ لم تكن طويلة ولم يحكما معاً سوى سنتين. امتازت هاتان السنتان من حكمهما بعمليات التمرد والعصيان التي قام بها، في قراهم أو دويلاتهم، الامراء برئاسة سليل اوغيدي كورسابة.

استطاع كيباك خان، ابن دوفا خان (١٣٠٩م، في المرة الثانية حوالي ١٣١٨ ـ ١٣٢٦م)، التخفيف من حدة الحركات الانفصالية بين اقربائه وذويه. فمثلاً، استطاع اخماد تمرد وانتفاضات تشابار وتوكمي وبايكاجار. وأجلس على عرش الـ «اولوس» أخاه الاكبر، ايسين ـ بوكي (١٣٠٩ ـ ١٣١٨م). واستطاع الأخوان (كيباك ـ خان وايسين ـ بوكي) ان يضما إلى دولتهما مساحة كبيرة من أراضي خايدو. وأن يحسّنا إلى حدٍ ما، الاوضاع الاجتماعية ـ السياسية في البلاد. بيد أنهما لم يستطيعا

---

٥ ـ آك ـ اوردا: دولة مغولية أسسها اوردا (اورطه)، ابن جوتشي في العام ١٢٢٦م في الجزء الشرقي من داتشي ـ كيبتشاك وفي سيبيريا.

قام «الغوي» ابن بيدار وحفيد تشاغاتاي - الذي اعتلى العرش بعد كارا - هولاكو و اركين - خاتون (١٢٥٢ - ١٢٦١م)، بمحاربة بيرك - خان (١٢٥٧ - ١٢٦٧م) لتحرير أولوس (دولة) تشاغاتاي من سيطرة الأورطة الذهبية، ووجّه ضربة قوية إلى حامية الاورطة الذهبية في بخارى المؤلفة من ٥٠٠٠ مقاتل، وبحسب ما ذكره المؤرخ وصاف، «أُسِرَت الحامية وأخرجت من المدينة إلى السهب، وابيدت عن بكرة أبيها، وتم تقاسم أموال الحامية ونسائها وأولادها». وثمة معلومات طريفة في هذا الصدد، أوردها رشيد الدين، وجاء فيها أنه في عهد الغوي - خان (١٢٦١ - ١٢٦٦م)، قامت القوات التشاغاتائية بمحاربة بيرك - خان وألحقت الهزيمة بقوات الاورطة الذهبية المتمركزة قرب أترار. «وقام هو - أي الغوي - كما ذكر رشيد الدين - بجمع القوات المشتتة، وحارب مرة واحدة قوات بيرك - خان وانتصر عليه ونهب اترار». بعد ذلك غدا «الغوي» قوياً لدرجة لم يعد معها يكترث للخان، بل صار يعتدي على حقوقه أيضاً، حتى إنه ذات مرة استولى على الخزينة المرسلة من ايرانزامين إلى الاورطة الكبيرة (كاراكورم)، مما أوقد نار الحرب بين اريك - بوغا (ابن تولوي - خان) والغوي - خان. وتشير المصادر إلى أن اريك - بوغا كان هو البادئ بالحرب التي انتهت، في خاتمة المطاف، بهزيمة الغوي. إلا أنه لم يفقد رباطة جأشه، وبعد مغادرة اريك - بوغا ، استطاع الغوي أن يحشد جيشاً كبيراً وانتصر على اريك - بوغا.

كانت دولة (اولوس) التشاغاتاي قوية نسبياً في عهد حكم باراك - خان حوالي (١٢٦٦ - ١٢٧١م). ودامت العلاقات متوترة بين الخان ودولة التشاغاتاي، ولكن دون الوصول إلى مرحلة حرب مكشوفة. بالاستناد إلى «تاريخ أرباع اولوس» تهادن الطرفان واتفقا بعد نزاع طويل. ولكن نتيجة سياسة باراك - خان العدوانية، كادت تندلع في العام ١٢٦٨ - ١٢٦٩م، حرب واسعة النطاق بين أولوس تشاغاتاي وايران.

وفي السنوات الأخيرة من حياة باراك - خان (ابن ايسون - كارا بن كامكار بن تشاغاتاي، سرعان ما تقاسم السلطة على اولوس تشاغاتاي كل من خايدو - خان

الاقطاعي، وذلك لأسباب كثيرة، أهمها أن هذه الاصلاحات كانت سطحية، ولا سيما الادارية منها. ولم تتطرق إلى أهم المبادئ الاساسية للمجتمع، خصوصاً العلاقات القبلية التقليدية، التي استمرت قوية وطيدة.

صحيح أن الممتلكات الاقطاعية حُوِّلت إلى «تومانات»، إلا أن السلطة فيها ظلت في أيدي مالكيها ـ كما في السابق ـ الذين صار يطلق عليهم اسم «رؤساء» الـ «تومانات». ورغم ذلك كله، كانت اصلاحات كيباك ـ خان خطوة إلى الامام نحو تطور المجتمع الاقطاعي. أما بالنسبة لاصلاح نظام العملة، فإنه لعب دوراً هاماً جداً في تعزيز النظام المالي في البلاد. وكانت الدنانير الكيباكية عبارة عن وحدات عملة ثابتة قابلة للتداول في دولة تشاغاتاي طوال تاريخ حكمها، وفي دولة تيمورلنك والتيموريين.

بعد وفاة كيباك ـ خان، دبت الخلافات والحروب الداخلية والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة. وخلال سنة واحدة (عام ١٣٢٦م) اعتلى العرش، بالتناوب، ابنا دوفا ـ خان: ايلتشيغ داي ودوفا ـ تيمور. صحيح أنه إبان حكم تارماشيرين (١٣٢٦ ـ ١٣٣٤م)، الملقب بعلاء الدين لشدة تمسكه بالاسلام، ظهرت بوارق أمل لانبعاث دولة تشاغاتاي. استقر تارماشيرين نهائياً في الجزء الغربي من البلاد، وكف عن السفر إلى المالیق[٨]. حتى إنه في بداية حكمه قام بحملة سلب ونهب واسعة النطاق على هندوستان، ووصل حتى دلهي. وما كانت هذه الأفعال كلها سوى طموحات.

أما خلفاؤه فلم يستطيعوا المحافظة على وحدة البلاد، إذ اندلعت الحروب الداخلية الجديدة بينهم بقوة. وكان الخانات بوزان (ابن دوفا ـ تيمور)، وتشانكشي (ابن ايبوغين) ـ حفيدا دوفا ـ خان وايسين ـ تيمور، شقيق تشانكشي، الذين حكموا في الفترة ١٣٣٤ ـ ١٣٤٢م، خانات اسمياً، فانتقلت السلطة إلى كبار الاقطاعيين.

وباختصار، في أربعينات ق ـ ١٤م، كانت دولة تشاغاتاي قد انقسمت إلى قسمين: مغولستان (او جيتي)، التي كانت تضم سيميريتشي، وتركستان الشرقية،

---

٨ ـ المالیق: مدينة تقع في سيميريتشي في وادي نهر ايلي قرب كولجي، يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، دمرت في ق ـ ١٦م.

توطيد الأمور بصورة تامة، ويعود ذلك، إلى حد معين، لحروبهما مع الخان وهزيمتهما فيها.

وبغض النظر عن ذلك كله، يحتل كيباك ـ خان مكانة خاصة في تاريخ اولوس تشاغاتاي، إذ يرتبط باسمه اصلاح نظام العملة والادارة، الذي لعب دوراً مهماً في تطور نظام الحكم الاقطاعي في آسيا الوسطى، وبناء أو إعادة بناء مدن ما وراء النهر التي دمرها جنكيزخان. فمن الآثار العمرانية الجديدة لكيباك ـ خان كان قصر (كارشي بالمغولية) على بعد فرسخين عن «نسف»، والذي اقيمت من حوله، فيما بعد، مدينة كاملة. ومن المدن التي أعيد بناؤها كانت مدينة بلخ القديمة، التي تحدث عنها ميرزا اولوغ بيك: «منذ عهد صاحب قران (جنكيزخان ـ ب. أ) العظيم كانت مهملة وتحولت إلى دغل مليء بالقصب».

كان الهدف من اصلاحات كيباك ـ خان الادارية، واصلاح نظام العملة، هو إصلاح نظام الحكم والنظام النقدي، وبذلك تمكن من وضع حدٍ للفوضى واستغلال المسؤولين، من مختلف المستويات، مناصبَهم لمصالحهم الشخصية.

وبحسب الإصلاح الإداري لكيباك ـ خان قسمت الدولة «اولوس» إلى تومانات في بخارى وسمرقند، وإلى «ارتشين» (ارتشين ـ كلمة تركية تعني ترجمتها الحرفية، قرب، حول، ضاحية، أي المنطقة المحيطة بالمدن الكبرى، ناحية، دائرة) في فرغانة وتركستان الشرقية.

أما فيما يتعلق بإصلاح نظام العملة في البلاد، فأُصدرت وحدة نقدية جديدة تعرف بـ«كيباكي»[٦] على شرف المصلح، وذلك قدوة بالوحدة النقدية الهولاكية المتداولة في ايران والأورطة الذهبية. وكانت زنة الدينار الكيباكي مثقالين، أما الدرهم[٧] الواحد فكانت زنته ٣ مثاقيل.

إلا أن هذه الاصلاحات لم تكن قادرة على التغلب على الانقسام والتفتت

---

٦ ـ كيباكي دينار: عملة ذهبية.
٧ ـ درهم كيباكي: عملة فضية.

واضحة بهذا الشأن. إلا أن ما تقدمه لنا النمّيات (المسكوكات) والمصادر القصصية (لدى الجويني، ورشيد الدين، ووصاف، وجمال الكارشي وغيرهم) يتيح لنا إعطاء بعض الآراء بهذا الشأن.

ينبغي أولاً القول إنّ بلاد تشاغاتاي كانت دولة ذات نظام حكم لا مركزي، يدير شؤونها من يعينهم الخان من الحكام المدنيين (للمناطق المتحضرة، حتى العام ١٢٨٩م)، وحكام ملاكون ذوو رتب عسكرية يتمتعون بصلاحيات خاصة: «داروخاتشي» و«تانماتشي». والجدير بالذكر، أنه كان يشارك في إدارة شؤون البلاد، علاوة على ممثلي القبائل التركية المغولية (مثلاً في عهد تشاغاتاي خاراتشار ـ نوين من قبيلة بارلاس: مُكي ـ نوين، من الجالايريين، ابن تشاغاتاي الاصغر من قبيلة سونيت، كشيخ من قبيلة سولدوس)، مشاركة فعالة زعماء الشعوب المحلية، أمثال محمود يالافاتش ومسعود بيك من خوارزم، حبش أميد من أترار، بهاء الدين مرغيناني، الوزير، يسو ـ منكي من فرغانة وغيرهم. وهنا ما يجدر ذكره، أن ممثلي سكان آسيا الوسطى المحليين الاصليين كانوا يسهمون، بصورة فعالة، حتى في الحياة الاجتماعية السياسية للصين في عهد أسرة يوان (١٢٧٩ ـ ١٣٦٣م). وبقي في المصادر على سبيل المثال، اسم محمود يالافاتش الآنف الذكر وخلفائه: علي بيك ويعقوب وشمس الدين الماليجي وسيد آجال وابنه علاء الدين، بهاء الدين القوندوزي وغيرهم.

نشأت تشاغاتاي في ما وراء النهر، وأصبحت بفضل جودة مناخها، دولة متطورة زراعياً، قائمة على الري الاصطناعي، واشتهرت بزراعة القطن، والأرز، والقمح، والشعير، والحمص، والقرعيات، والفصفصة والكروم وهَلُمّ جراً. وبفضل موقعها الجغرافي، كانت شرياناً تجارياً حيوياً ونقطة هامة على طريق الحرير العظيم، وقد لعبت دوراً كبيراً في تجارة الصين واليابان مع بلدان الشرقين الأدنى والأوسط وأوروبا الشرقية.

وتطورت الصناعة والزراعة في مدن ما وراء النهر: سمرقند، وبخارى، وطشقند، وخوقند، وخوجيند (مقر نائب الخان)، وأوزغيند (مكان حفظ الخزينة كما كان الأمر في عهد القاراخانيين والكاراكيتاي)، ومدينة انديجان حيث أجرى دوفا ـ

والجزء الشرقي من فرغانة، وما وراء النهر التي كانت تشتمل على الجزء الجنوبي الشرقي من خوارزم.

وفي الفترة من أربعينات إلى ستينات ق ـ ١٤م، تميزت دولة تشاغاتاي بازدياد الفوضى والاضطرابات واندلاع الحروب الداخلية والانقسام الاقطاعي. وفي تلك الفترة، تقسّم جزء من البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة. وفي الجزء الشرقي ظهرت البلاد المعروفة في المصادر التاريخية بـ«مغولستان» أو «جيتي». وناهيك من التقاليد القبلية الوطيدة، بدأت الاضطرابات والصراع الاقطاعي. وهنا قويت شوكة القبائل، ولا سيما قبيلتي «تشوروس» و«دوغلات». أما في الجزء الغربي من البلاد، فقد، انتقلت السلطة أيضاً إلى القبائل التركية المغولية التي استولت على السلطة. فمثلاً، أعلن حاجي بارلاس ـ عم تيمورلنك ـ استقلال كيش (شهريسابز) ومنطقتها، وفرض الأمير بايزيد جالاير سلطته التامة على إقليم خوجيند، كما أعلن خضر ياسافوري استقلال ساريبول وتاتقند[٩]. ورفع الاميران أولجيتو وكايخوسرو راية الاستقلال في حصار وخوتالان، كذلك أعلن الامير حسين ـ حفيد الأمير العظيم كازاغان المقتول عام ١٣٥٨م في أثناء الصيد ـ استقلاله ببلخ ومحافظتها. كما استقل محمد خوجا ـ زعيم النايمانيين ـ بـ «شيبرغان» ومحافظتها. وكانت ثمة مناطق خاضعة للأرسطقراطيين المحليين. فمثلاً، كانت بخارى ومحافظتها خاضعة للصدور، وترمذ ـ للسادة المحليين ـ الخوداواندزاديين، المنتمين إلى سلالة الشيخ الطشقندي الكبير ـ خاواندطاخور (المتوفى حوالى عام ١٣٥٠م) وغيرهم.

وهكذا نرى أنّ الخانات لم يتمتّعوا بأي سلطة فعلية، وكانوا مجرد أدوات في أيدي الجماعات الاقطاعية المتصارعة. الأمر الذي استغلّه الرجل الذكي ذو المراس تيمورلنك ـ ابن البيك من بارلاس «تاراغاي ـ بهادور».

إن عدم توافر المعلومات الوافية عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في دولة تشاغاتاي، تحول دون إعطائنا أي معلومات أو أي صورة

---

٩ ـ تاتقند: مدينة ترتقي إلى القرون الوسطى، تقع في آسيا الوسطى ما بين كاتا ـ كورغان و وخاتيرتشي.

جندار محافظة بخارى الاوزبكية - حالياً)، وسرعان ما امتدت لتشمل المنطقة بأسرها. واتجه إلى بخارى العديد من آلاف الثائرين المسلحين بالعصيّ والرفوش والفؤوس والمذاري، وهنا هرب قسم من المسؤولين المغول إلى كيرمين، واندسّ آخرون منهم بين الثائرين بهدف قتل محمود الطربي وهو في طريقه إلى بخارى والقضاء على زعيم الثورة.

وفي نهاية المطاف، استولى الثائرون على بخارى. وتمركزت قواتهم الرئيسة على مرتفع أبي حفص شمالي المدينة. أما محمود الطربي فقاده الشعب إلى قصر ملك سنجار وبايعه بالخلافة، وأما الوجهاء والمسؤولون المغول الذين لم يتمكنوا من الفرار، فقد ألقي القبض عليهم وأعدموا، ووزعت أملاكهم على الفقراء. بيد أن المغول الفارين إلى كيرمين سارعوا إلى جمع فصائلهم المشتتة، وقاموا بمهاجمة الثوار، إلا أنهم هزموا وردوا على أعقابهم. كان بمقدور الثوار مواصلة القتال وتحقيق مزيد من النجاحات، لكن زعماءهم - محمود الطربي وأخواه محمد وعلي، وعالم الدين شمس الدين محبوبي - رغبوا عن ذلك. وهكذا لم تتجاوز الثورة حدود بخارى، فاستغل محمود يالافاتش والمغول ذلك وأرسلوا من خوجيند جيوشاً بقيادة كاراتشار - نوين وايلديز - نوين وجيكين - خارتشي، وهزموا محمود الطربي وثواره، الذين لم يكونوا مسلحين بصورة جيدة وكانت تنقصهم المهارة القتالية، إلا أنهم رغم ذلك أبدوا مقاومة باسلة شديدة. ونقلاً عن المصادر، كانت المعارك دموية وفقد فيها من الطرفين ٢١٠٠٠ نفر. إن هذا العدد مبالغ فيه وموضع شك، لكن الأمر الذي لا شك فيه، هو أن الثوار دافعوا دفاعاً مستميتاً، وحاربوا الدخلاء بتفان، وبالرغم من القضاء على ثورتهم، إلا أنهم أثبتوا للمغول أن شعب ما وراء النهر يكره ويرفض النظام الذي أقامه المغول - التتر على الظلم والجور والتعسف، ولا ينوي الاستسلام له، ويتمتع بقوة كافية لخوض نضال ضارٍ ضد هذا النظام البغيض.

وتعد من الأحداث البارزة في الحياة الاجتماعية الاقتصادية في بلاد تشاغاتاي في أواسط ق - ١٣م، تلك الخلافات التي ازدادت حدة وتوتراً بين خلفاء تشاغاتاي الذين كانوا حكاماً في المحافظات. كان قسم من الامراء، حكام أولوس، يطمحون منذ

خان الكثير من الاصلاحات واتخذها عاصمة لفرغانة، ومرغيلان (مركز العلماء والشعراء)، وأخسيكيت، مسقط رأس الشاعر المعروف اثير الدين اخسيكاتي (المتوفى حوالي العام ١١٧٤م)، اسفارا، التي انجبت شاعر القرن ـ ١٣م سيف الدين اسفرانغي (المتوفي في الفترة ما بين ١٢٦١ ـ ١٢٦٧م)، كوبا (او ـ كوفا) موطن الشاعر الكبير ركن الدين كوباوي (ق ـ ١٣م).

لقد سبق أن ذكرنا آنفا أن التشاغاتائيين كانوا يحكمون البلاد (اولوس) بصفة «انجو» فقط، أي أنهم يكتفون بالتمتع في الحصول على مداخيلها وايراداتها. أما فيما يخص الإتاوات والخراج والضرائب، فإن المعلومات المتوافرة لدينا عامة بسيطة. فمثلاً يقول رشيد الدين عن الضرائب الأساسية المفروضة على الفلاحين والتجار والرُّحل: مال خراج، «كوبتشور»، «تارغو». ووفقاً لما أورده، كان حجم ضريبة الأرض يعادل ١٠ ٪ من الحجم العام للمحصول. وحجم ضريبة الماشية «كوبتشور» ١٪ عن كل ١٠٠ رأس. والضريبة الثالثة «تارغو» كانت ضريبة تجارية. ولا شك أنه فرضت ضرائب على الصناعات والتجارة، وكانت تدفع من المواد المنتجة أو السلع المباعة. ولكن منذ خمسينات القرن ١٣م، وبعد البدء بتداول العملة في عموم الأمبراطورية المغولية، وصكّ النقود باسم منكي ـ خان (١٢٥١ ـ ١٢٦٠م)، ولا سيما منذ عام ١٢٧٠م، بوشر بدفع الضرائب والإتاوات نقداً. وتجدر الإشارة هنا، إلى ان النقود كانت تصك في العديد من المدن الكبيرة. وذكر منها البحاثة م. ا. ماسون مدناً مثل: الماليق، بخارى، سمرقند، اترار، تاراز، كاشغار، طشقند، اوش، مرغلان، آك ـ تيبي، اوزغيند وخوجيند.

ومن الوقائع الاجتماعية الاقتصادية في حياة شعوب آسيا الوسطى إبان حكم المغول (التشاغاتائيين)، تجدر الإشارة إلى انتفاضة سكان محافظة بخارى في العام ١٢٣٣م بقيادة الحرفي محمود الطربي، احتجاجاً على سوء أوضاع جماهير الشعب، الناجم عن ظلم المسؤولين المغول وجباة الضرائب، وتمادي الاقطاعيين المحليين في تعسفهم. جرت الانتفاضة على النحو التالي: بدأت الانتفاضة في قرية «طرب» الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ (١٨ ـ ٢١كلم) عن بخارى (في حدود ناحية

الفصل العاشر

آسيا الوسطى في عهود تيمور والتيموريين

شكل التيموريون، آل تيمور، عائلة عظيمة رائدة، أسسها رجل الدولة والقائد الحربي الفذ الأمير تيمور (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م)، والذي يتحدر نسله من أسرة البك البرلاس، أحد بكوات الطبقة الوسطى، تاراغاي[١] بخادر (توفي عام ١٣٦١م). وقد تملك التيموريون زمام الحكم مدّة مئة وستة وثلاثين عاماً، خصوصاً في بلاد ما وراء النهر وإيران وأفغانستان وأذربيجان. ومن هذا المقام ينبغي الإشارة إلى أحد أفراد هذا البيت البارزين، ألا وهو ظهير الدين محمد بابور (١٤٨٤ ـ ١٥٣٠م)، وذريته من بعده، الذين خلدهم التاريخ باسم «المغول العظام» أو «البابوريون»، والذين حكموا الهند على مدى ثلاثمئة واثنين وثلاثين عاماً (١٥٢٦ ـ ١٨٥٨م)، وحققوا رصيداً هائلاً، وإنجازات عديدة، وازدهاراً اقتصادياً وثقافياً حضارياً ضخماً في تلك البلاد العظيمة.

ولقد لعب الأمير تيمور، والدولة التي أسسها، دوراً هاماً رائداً في التاريخ، ليس تاريخ بلدان الشرق فحسب، بل تاريخ بلدان الغرب أيضاً. ويعد عصر تيمور، وعهود التيموريين من بعده، عصور ازدهار ورقي شعوب تركستان وايران وأفغانستان والهند، في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

١ ـ اسم والد تيمور: محمد تاراغاي بخادر (المترجم)

عهد مبارك ـ شاه وباراك إلى إقامة علاقات وطيدة مع سكان ما وراء النهر الحضر. فمثلاً، قام، آنذاك، مبارك ـ شاه بالارتحال من سيميريتشي إلى وادي آخانغران، وقام باراك ـ خان بالارتحال إلى تشاغانيان اولاً، حيث جرى انتخابه في العام ١٢٦٦م.

أما بنيانهم الاجتماعي فكان قوياً يترأسه العسكريون الرحّل: خايدو، ياساورا، بوزانا وغيرهم. وكانت حياتهم تميل إلى نمط حياة الرُّحل الغزاة. إذ أنهم كثيراً ما أغاروا على مناطق البلاد المتمدنة، ونهبوا السكان، وأحرقوا المدن والقرى. ومن جراء ذلك، أطلق عليهم الحضر لقب (لصوص، قطاع طرق، بربر)، في حين أطلقوا هم على الحضر لقب هُجناء (أي كاراوناس).

بيد أن الأمير قازاغان، بغض النظر عمّا لحقه من هزيمة، استعد لجولة جديدة من القتال. وقد انتظر طويلاً أن تحين الساعة، وأخيراً أتت هذه الساعة. فقد حل الشتاء عام ١٣٤٥م قارساً، وفقد كثيرون، ومنهم قازان خان الجزء الأكبر من حيواناتهم، خصوصاً الجياد. وقد استغل هذا الظرف الأمير قازاغان وحلفاؤه، فدفعوا بقواتهم في ربيع ١٣٤٦م إلى قارش، ضد قازان خان. ودارت المعركة بينهما قريباً من العاصمة، وانتهت هذه المرة بهزيمة الخان، بالاضافة إلى قتله في معركة دموية.

ثم أصبحت القبائل التشاغانية تحت إمرة الأمير قازاغان. بيد أنه لم يستطع تبوُّء العرش لأنه لم يكن «جنكيزياً» بالوراثة، وطبقا للتقاليد الشائعة، التي كانت متأصلة بين شعوب الترك المغولية، لا يعتلي عرش البلاد إلاّ أفراد ذوي الـ«أق سوياك» (= العظام البيضاء)، من ذرية جنكيز خان. وكان الأمير قازاغان مضطراً لأن يحترم هذه التقاليد، ولكنه لم يدع هذه الفرصة تفلت من يديه، فعمل على أن يعتلي عرش الخان أشخاص من اختياره، فكان دانيشماند تشاخان (١٣٤٦ - ١٣٤٨)، ثم بيانقل خان (١٣٤٨ - ١٣٥٧م)، اللذان كانا خانين بالاسم فقط، في حين ركز قازاغان السلطات كلها في يده. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، ففي شتاء عام ١٣٥٥م، وعلى ضفة نهر جيحون (أموداريا) الجنوبية، من اقليم أرخانج سراي[٣]، وفي أثناء قيام الأمير قازاغان برحلة صيد، أصيب بسهم رمته يدا قاتل مأجور (على الأرجح من شيعة قازان خان). ولم يثبت بعده ابنه الأمير عبد الله، في خلافته في السلطة، إذ قام ضده، وضد الخان المنصب بيانقل، عام ١٣٥٧م، اثنان من أمراء الولايات هما: بيان سولدوس رأس السلطة في خيسار، وحاج بارلاس حاكم كيش (شهرسابز). وفي معركة دارت على بعد خطوات من سمرقند، قبض على الخان وأعدم، ونجح الأمير عبد الله في الفرار إلى ما وراء نهر جيحون (أموداريا)، حيث أقام في أندراب[٤] زمناً، ومات فيها.

واستمر حكم تيمور شاه، الذي نصبه على العرش بيان سولدوس وحاج

---

٣ - أرخانج سراي: من اقليم توخاريستان، تشتهر باسم «حضرة إمام».

٤ - أندراب: بلدة على الحدود بين اقليم توخاريستان وكابول، كانت تخضع لحكم باميان.

والحضارية كافة. لقد كان ذلك عصر اهداء العالم تلك الشخصيات الرائدة، كل في مجاله، أمثال: مرزا أولوغ بك، ظهير الدين محمد بابور، وعبد الرحمن جامي، وعلي شير نوائي، وغيرهم من رجالات العلم والثقافة.

الأمير تيمور ـ الحياة الاجتماعية والسياسية لتركستان من منتصف القرن الرابع عشر إلى بداية القرن الخامس عشر

بدأ ظهور الأمير تيمور، على مسرح أحداث التاريخ، من منتصف القرن الرابع عشر، وواكب ذلك فترة التفكك النهائي لاتحاد قبائل تشاغاتاي، والذي بدأ في ثلاثينات القرن الرابع عشر كنتيجة لاستمرار الحروب بين الاقطاعيين، وتفاقم النزاعات بين الوجهاء والعائلات العريقة. وقد حاول قازان خان (١٣٣٣ ـ ١٣٤٦م)، وبوسائل قمعية، القضاء على نفوذ أمراء القبائل والطوائف وسيطرتهم، وفي مقدمتهم أمير الأمراء قازاغان، أعظمهم وأقواهم. وقد بلغت قسوة الخان حد أنه، كما أورد شرف الدين علي يازدي (توفي عام ١٤٥٤م) إذا ما طلب أمير مقابلة الخان، لم يكن يأمل أنه يعود من لدنه على قيد الحياة، وكان يودع أهله قبل ذهابه. وبسبب هذا العسف، فر الكثيرون منهم إلى سالي سراي[٢]، حيث الأمير قازاغان، الذي انعزل عن الخان، ولم يعد يغادر سالي سراي إلى قارش، تحاشياً لعنف الخان وقسوته.

وتطورت مشاعر البغض والنفور بين الخان والأمير، في نهاية المطاف، إلى عداوة، أدت إلى اندلاع الحرب بينهما. ومن العام ١٣٣٩م، قام قازان خان بهجوم ضد قازاغان، بغرض سحقه، والتخلص من ذلك الأمير العاصي وأعوانه، إلى الأبد. وجرت موقعة القتال بينهما في مكان يقال له داراي زانجي، يقع إلى الجنوب من بلدة تحير قاسبج (البوابات الحديدية) الشهيرة، وانتهت بهزيمة قوات الأمير التي كانت بقيادته، وفقد احدى عينيه بسبب القتال. ولكن الخان، لسبب ما، لم يذهب في أثر عدوه الأمير ومطاردته، بل عاد إلى الهقره من قارش.

---

٢ ـ سالي سراي: بلدة كانت على ضفة نهر جيحون (أمودريا)، حاليا قرية سراي. من أعمال مركز دينار، اقليم سورخانددادريا، أوزبكستان. وكانت مقر القيادة العامة الرئيسية للأمير قازاغان.

واستمرت سلطة الخان المغولي على بلاد ما وراء النهر مدة عامين ونصف العام. وفي خريف ١٣٦٢م، عاد توغلوق تيمور، إلى موطنه مغولستان، وولّى ابنه خضر خوجة أوغلان، على ما وراء النهر، يعاونه في السلطة الأميران بكتشك، وتيمور بك. إلا أن الحاكم الشاب كان ضعيف الإرادة، مستسلماً للهو، فاستغل ذلك الأمير بكتشك، الرجل الذي عركته الحياة، معتمداً على مساندة اتباعه في قصر الحاكم، حيث جمع في يديه خيوط السلطة جميعاً، ولم يرتح تيمور بك لذلك، وازدادت العلاقات توتراً بينه وبين بكتشك، وفي ظل هذه الظروف، وتفادياً للمكائد والدسائس التي كان يحيكها ذلك المخاتل القادر، قام تيمور بك بمغادرة سمرقند ليلاً تصحبه فرقة من خلصائه.

ومنذ ذلك الحين، ارتبط قدره بقدر نظيره الأمير النشط الشاب حسين حفيد الأمير قازاغان، سالف الذكر، فرحلا سوياً إلى خيف، بحثاً عن الحظ والتوفيق. بيد أن الحظ لم يبتسم لهما هناك. لقد عاشا حياة شريدة في البراري، إلى أن وقعا في أيدي علي بك، حاكم جاني قورباني[٥]، في بلدة محمودي التابعة لماخان (حالياً ماري). وقبعا في حبسهما مدة اثنين وستين يوماً، في انتظار مصيرهما. وطبقا لرواية شرف الدين علي يزدي، فقد عقد علي بك النية على أن يبيعهما لتجار إيران، عند وصول قوافلهم. إلا انه بفضل مسعى محمد بك، الأخ الأكبر لعلي بك، حصل الأميران على حريتهما.

وافترق تيمور بك وحسين بك، عند زاندون، القرية البخارية. لكنهما اتفقا على العمل المشترك، فسافر الأول إلى موطنه كيش، على ما يبدو بغرض جمع الأنصار، في حين رحل حسين بك إلى الضفة اليسرى لنهر جيحون (أموداريا). على أن يتم اللقاء بينهما سراً في اقليم جارم سر على شاطئ نهر هلمند. ثم إن الأميرين التقيا، كما اتفقا، بجيشهما. أما ماذا كان في نية كل منهما أن يفعل مستقبلاً؟ هل يبدآن الصراع لتوحيد أقاليم الضفة اليسرى لنهر أموداريا، أم يقومان بغارات سطو على

---

٥ - جاني قورباني - فرع (قبيلة) من اويرات، يمثلهم أرجون شاه وعلي بك اللذان حكما سيراقوس وابيغرل ونسا وتوس ومشهد.

بارلاس، حوالى عامين (١٣٥٧ ـ ١٣٥٩م)، ثم صفّي جسدياً. وبعد ذلك تفكك التشاغاتاي، وانقسم إلى عدد كبير من البكستات التي تحللت من العهد وأعلنت استقلالها الواحدة تلو الأخرى. وكان الحاج بارلاس أول من رفع راية الاستقلال في كيش، ثم تلاه بايزيد جالاير من خوجند، وأولجاي يوغا سولدوس من بالخ، ومحمد خوجه أبردى نايمان في شبرغان، والأميران فايخسراو وأولجاي أبردي في خوتالان وأرخانج سراي، وخضر ياسا أوري في تانكنت، وساريبول والأمير ساتلميتس في كوخستان. وفتح الانفصال والتقسيم الطريق أمام الصدام بين الاقطاعيين، وقيام الحروب الأهلية، الأمر الذي أدى الى اشتغال الأمراء المستقلين بنهب بعضهم بعضاً وتسببوا بالكثير من المصائب للمواطنين.

واستغل الخان المغولستاني، توغلوق تيمور (١٣٤٨ ـ ١٣٦٣م)، الوضع السياسي غير المستقر في بلاد ما وراء النهر، وقام بالهجوم مرتين عليها، بغرض إعادة توحيد الفصائل والعشائر التشاغاتية المنقسمة في ذلك الوقت، الى جزءين. ولم يتمكن في الحملة الأولى من ترسيخ أقدامه في ما وارء النهر (١٣٦٠م)، في الأقاليم الواقعة بين سيحون (سرداريا) وجيحون (أموداريا)، حيث أعاقته حركات التمرد والعصيان والفوضى التي اندلعت من مغولستان نفسها، فاضطر الى مغادرة ما وراء النهر مسرعاً على الأثر. ولكن، في الحملة الثانية (١٣٦١م)، تمكن من اخضاع تلك البلاد المترامية المتحضّرة. ولم يستطع البكوات التشاغاتيون، كما في المرة السابقة، التوحّد، وفرّ كلّ منهم إلى جهة، تاركا قبيلته وشعبه تحت رحمة الأقدار. إلا أنّ واحداً منهم فقط، هو تيمور بك، اتخذ موقفاً مختلفاً. لقد بقي في وطنه وقرر الدفاع عن مواطنيه بالسبل كلها ضد اعتداءات الاقطاعيين المغولستان، واذلالهم لشعبه. وبعد تقدير كامل للموقف، ووزن للأمور، اتصل الأمير تيمور بالحاكم توغلوق تيمور، وقاما بالعمل معاً، في مقابل توليته الحكم على موطنه كيش والأقاليم التابعة لها. وقد فسر تيمور نفسه هذه التصرفات، فيما بعد، بأنها كانت أنسب وسيلة لحماية الوطن والمواطنين من أعمال السطو والنهب والقتل التي كان يقوم بها المغول: «خطة مدروسة بإحكام، وأقوى من الجيوش ذوات آلاف الأعداد»، كما ورد في كتابات تيمور اللاحقة.

للانقضاض على البلاد، فارتجفوا خوفاً، وغادروا البلد». وكانت المرة الثالثة من تاش أريق (= نهر الصخرة)، حيث حقق الحليفان تيمور بك والأمير حسين نصراً على المغول ذوي البأس، في العام ١٣٦٤م، وعلى جيشهم الأمير بكتشك نفسه (لم يكن خضر خوجه موجوداً حينها، حيث استدعي الى مغولستان إثر وفاة والده توغلوق تيمور خان) ومعه الأميران الكبيران حامد وتوق تيمور.

وكانت هزيمة منكرة، أسر فيها الأمراء بكتشك واسكندر أوغلان وحامد ويوسف خوجه، وقتل فيها الكثيرون. ويضيف علي يزدي: «كان بين القتلى اثنان من أمراء البيت المالك، وقد قذف بالمغول إلى ما وراء نهر سيحون (سرداريا).

وقد اشتهرت هذه الموقعة، التي جرت بين الأميرين، حسين وتيمور من ناحية وبين المغول من ناحية أخرى، في التاريخ باسم «جانج لاي» (القتال الموحل).

وعلى هذه الحال، فان الطريق الى سمرقند كان مفتوحاً أمام المغول. وقد استولى الياس خوجه، دون مجهود يذكر، على خوجند وجيزاخ وغيرهما من البلاد والقرى الواقعة بين خوجند وسمرقند. وهنا تجدر الاشارة إلى أن سمرقند، في ذلك الحين، لم تكن تحيطها الأسوار، ولم يكن حولها أي استحكامات أخرى، حيث أنها دمرت، كما هو معروف، على يدي جنكيزخان. ولهذا كان الياس خوجه على ثقة بأنه يمكنه الاستيلاء على المدينة بدون عناء. إلا أنه أخطأ في حساباته حيث أن شعب المدينة انبرى للدفاع عنها.

قام على رأس المدافعين شخص اسمه مولانازاده، واحدٌ من طلاب احدى مدارس سمرقند، وشخص آخر وهو الحرفي أبو بكر بكالاوي[٧] (نادف القطن)، ورامي القوس الماهر خوردك بخاري. ويسرد تلك الأحداث ب. ب. بارتولد، في مقالته بعنوان «الحركات الشعبية في سمرقند خلال عام ١٣٦٥م» كما يلي: انتظاراً لهجوم المغول، اجتمع أهل سمرقند في المسجد الجامع، ولكنهم لم يستطيعوا التوصل إلى قرار. وهنا انبرى ممثل جماعة العلماء، وكان رجل من وجهاء بخارى،

---

٧ ـ يندف القطن باستخدام العصا، وذلك لجعله هشاً نظيفاً. وهذه حرفة المنجد (المترجم).

سنيد؟ فإن المراجع لم تورد أية معلومات حول هذا الموضوع، والمعروف فقط أنهما حينذاك توجها الى سيستان بدعوة من مالك قطب الدين. وتبعاً لقول المؤرخ، فقد أراد أن يستثمر خدماتهما في صراعه ضد عدوه. وفعلاً نجح قطب الدين في ما أراد، وحصل الأميران على مكافأة ضخمة، تمثلت في مبالغ نقدية، ونفائس، وغير ذلك، وكان المقابل ازهاقه المئات من الأرواح، وقد أصيب تيموربك بجراح بالغة في ذراعه وساقه الأيمنين، الأمر الذي نتج عنه ضمور في ساقه سبّب له عرجاً[٦] دائماً. وقد جرت هذه الأحداث عام ١٣٦٢م.

انصرم ما تبقى من العام ١٣٦٢م، وتلاه العام ١٣٦٣م بكامله وتيمور بك والأمير حسين منهمكان في شن «حروب عصابات»، إذا صح القول، ضد المغوليين. واستخدما الضفة اليسرى لنهر جيحون (أموداريا) وهي مناطق: كاخمرد وديريجيز وأرسيف واقليم بالخ، قاعدة تمركز لهما، ومنها كانا يعبران النهر، يتحينان الوقت المناسب، وينزلان ضربات مفاجئة بالحاميات المغولية المنتشرة في بالخ وترمذ ويولي سانجين، والبلدات الأخرى. وفي بعض الأحيان، وصل فرسان تيمور بك إلى حدود كيش نفسها، وخوزاره، بل إن الاميرين كانا، أحياناً، يظهران جسارة كبيرة، فينقضان على القرى المغولية الكبرى. وهكذا، وفي العام ١٣٦٣ - ١٣٦٤م، أحرزا النصر ثلاث مرات على القوات المغولية المتفوقة عدداً وعدةً، كانت أولاها في سانجين، عندما قهر تيمور بك جيشاً قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل وعلى رأسه الأمراء: ساريق وشينكوم وتوغلوق خوجه وكورتيمور. والثانية في كيش عندما توجه تيمور، بعد الأحداث السابقة، إلى ناحيتها، ووُفِّق في الاستيلاء عليها بقوة صغيرة، بفضل موهبته ودهائه الحربي.

وطبقاً لشرف الدين علي يزدي: «تخيَّر من بين مقاتليه مئتي فارس مغوار، وأمرهم أن يشدوا إلى جوانب خيولهم حزماً من القش، وجعلهم صفاً واحداً، وهو على رأسهم، وأطلقوا لجيادهم العنان إلى كيش. وعندما رأى القائمون على أمر المدينة مثار النقع ذاك، والغبار الكثيف الممتد، ظنوا أن جيشاً عظيم العدد يتقدم حثيثاً

---

٦ - من هنا جاءت شهرته باسم تيمور لنك(= الأعرج) ... المترجم.

الجناح الأيمن للقوات المغولية، انتاب حسين التردد، فلم يدفع كتائبه إلى الجناح الأيسر للعدو. وقد واكب ذلك تلبد السماء بغيوم سوداء، وثار إعصار من ريح عاصف، وانهمر وابل من المطر الغزير، فتحولت ساحة الموقعة إلى بحيرة من الوحل الغدق، غاصت فيها قوائم الخيل، وفقدت قدرتها على الحركة الطليقة، وكان الموقف عصيباً على الفرسان والجياد. إلا أن مقاتلي تيمور واصلوا قتالهم بكل بسالة، وكان من الممكن أن يحرزوا النصر لو كان للأمير حسين حضور، بل على العكس، فقد غادر موقعه القتالي، وتقهقر إلى نهر سرداريا. وفي ظل تلك الظروف، لم يعد صراع تيمور بمفرده، ضد القوة المغولية الهائلة، مجدياً. ومن ثم اضطر هو أيضاً إلى مغادرة أرض المعركة. وكما يتضح من رواية شرف الدين يزدي: كان الأمير حسين فزعاً إلى درجة أنه هرع إلى موطنه في سالي سراي لا يلوي على شيء، وفي عجل، جمع أشياءه وكل ما يتعلق به وبأفراد أسرته، وأسرع جارياً إلى ما وراء أمودريا، وتمركز في شبرتو[١٠]. وطبقاً لقول يزدي: «عندما ظهر المغول على ضفة أمودريا اليسرى، اعتزم الهرب إلى هندوستان». وواصل تيموربك رحيله إلى سمرقند، ومنها إلى كيش. وإذ صار البقاء في ما وراء النهر بلا معنى، فإنه ايضاً رحل الى ما وراء أمودريا متمركزاً في اقليم بالخ.

وكما يروي بارتولد: «وتبعاً لموسيفي[١١]، عاهده عشرة آلاف مقاتل شاب كاملو التسلح».

على مدى ثلاثة أيام بلياليها، استمر السمرقنديون، وعلى رأسهم مولانا زاده وأبو بكر بكالاوي وخور دك بوخاري، في العمل دون انقطاع، وأعدوا المدينة للدفاع. لقد حشدوا جميع من استطاع حمل السلاح، وأقاموا المتاريس في جميع الشوارع، ما عدا الرئيسي الأساسي، حيث كمن الرماة في الأماكن الهامة. وعندما اقتحمت خيول المغول، بسرعتها الفائقة، تلك الطريق، قوبلت بسهام الرماة. وفي الشوارع

---

١٠ - شبرتو - مستعمرة تقع بالقرب من باجلانة.

١١ - موسيفي: المؤرخ، هو مؤلف «تاريخي خيرات». راجع بارتولد، موسكو، ١٩٧٣.

معروف بشجاعته وفنه في الرماية، واتجه الى المنبر، مُتقلّداً سيفه، بخطوات وئيدة. وبعد التحية المعتادة، وجه خطابه إلى الجمهور: يا معشر المسلمين ... ها هي جموع الكفرة، في قوتها القاهرة، أتت لتنهب ديار المسلمين، والحاكم يحصل منهم الجزية[٨] تحت مُسمّى الجباية[٩] والخراج، وينفقها كما يتراءى له، وعند قدوم العدو تخلى عن المسلمين وتركهم لرحمة الأقدار، وفرّ أمام الكفار. وعلى الرغم من أن أهل هذه المدينة قد دفعوا ليفتدوا أنفسهم، وقدموا الهدايا، إلا أن ذلك لم ينقذهم. ستدعون يوم الموقف العظيم لتُسألوا، أيها الأثرياء!! من يتصدى للدفاع عن الاسلام؟! من يتحمل أمانة المسؤولية أمام الوجهاء والعامة؟! فنطأطئ رؤوسنا له، ونتقدم لنخدم تحت إمرته!!. والتزم جميع الأشراف الصمت. فاستطرد مولانا زاده: بما أنه لم يقبل أحد المسؤولية، فهل إن أخذتها على عاتقي، تقدمون لي المساعدة والتأييد؟! فوافق الجميع على ذلك، واعترفوا به قائداً لهم وزعيماً عليهم. وعلى إثر ذلك، بعث بالأمير جاقو وسيف الدين إلى سمرقند، ورحل الأمير حسين إلى جيزاخ، وغادر تيموربك إلى طشقند، حيث مكث مدة ثلاثة اشهر لمعالجة جروحاته واصاباته. ثم إنهما (تيمور وحسين) سافرا معاً إلى سمرقند، واستدعيا شدمان تشاغاتيد قابول شاه، ابن دورتشي بن التشجيدوز بن دوواخان، من خيسار، ونصباه على عرش شعب تشاغاتاي.

لم يسلم الياس خوجة بضياع ما وراء النهر، بل تجهز للقيام بحملة جديدة. وفي ربيع عام ١٣٦٥م، تحرك جيشه الكبير باتجاه ما وراء النهر. وتقدم تيمور بك والأمير حسين، بجيشين إلى ضفاف نهر سرداريا. ودارت رحى موقعة دموية عنيفة بين المغول والتورانسام، كانت ساحتها بين تشيناس وطشقند. وفي الصباح الباكر من أول شهر رمضان ٧٦٦هـ (٢٢مايو ١٣٦٥م)، حمي وطيس القتال، وبانتصاف النهار مال ميزان النصر ناحية الاميرين. وفي حين سحق تيمور بقواته

---

٨ ـ الجزية ـ جعل مادي يدفع عن كل نفس، كضريبة يؤديها غير المسلمين المقيمين بديار المسلمين إلى بيت المال، نظير الخدمات الفيدرالية مثل الجيش والشرطة (المترجم).

٩ ـ الخراج ـ ضريبة عن دخل الأطيان الزراعية، تحصل بواقع نسبة تراوح من خمس إلى ثلث المحصول طبقاً لطبيعة ري الأرض (أمطار ـ أنهار ـ بالآلة...)

شامي والسمرقندي، فقد أطلع أمراء سمرقند (ساريدارلر) على كل توجهاتهم، وأنهم يباركون أعمالهم، وأبدوا رغبتهم في لقاء حماة سمرقند. وقد صدق ساريدارلر حسن نية الأمراء، وحضروا للقائهم في خان جيل، ومعهم هدايا قيمة. وفعلاً قوبلوا في أول يوم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، أما في اليوم التالي، فلم يبق من ذلك أثر، فقد قبض على قائدي ساريدارلر أبو بكر بكالاوي وخورداك بخاري، ورُحِّلا إلى المنفى، في حين أجار تيمور بك مولانا زادة، وأنقذ حياته، ويتساءل ا. ى. ياكوبفسكي، في مقالته «تيمور ـ مختصر تقويم الشخصية» عن السبب الذي دعا تيمور إلى ذلك؟ ويستطرد مجيباً: يبدو أنه حدث اختلاف في وجهات النظر بين تيمور بك والأمير حسين، بشأن ساريدارلر سمرقند. وهناك ما يدعو إلى الظن بأنه كانت لتيمور علاقات قديمة ببعض منهم، خصوصاً بـ «الأعيان». وأيا كان الوضع، فإن الأمير حسين وتيمور بك أخضعا سمرقند لسلطة ساريدارلر (الصعاليك). وقد جرت هذه الأحداث في نهاية العام ١٣٦٦م.

بيد أن تيمور بك والأمير حسين لم يشتركا في اقتسام السلطة فيما بينهما، علاوة على أن شقة الخلاف الذي حصل بينهما على إثر معركة «قتال الوحل»، قد تعمقت، ولعب في ذلك غدر الأمير حسين وجشعه دوراً مهماً.

وقد وصل الأمر الى حد أنه بعد طرد المغول، صار يتطاول على ثروات الامراء، ليس ذويه فحسب، بل أمراء تيمور بك أيضاً. ومثال ذلك، أنه طلب إلى الأمراء جاكو وسيف الدين وأمه بوغي والتش بخادر ودولت شاه باكش دفع أموال طائلة، إلا أنهم، وقد أضاعوا تقريباً جل ممتلكاتهم في «قتال الوحل» وما تلاه من عبور سرداريا، لم يكونوا في وضع يسمح لهم بقضاء ما طلب اليهم. وطاردتهم تحقيقات وضغوط لانهاية لها. ولم يرض تيمور أن يترك امراءه يعانون، فدفع عنهم غرمهم، لدرجة أنه، كما حكى شرف الدين يزدي، «ضحى في سبيل ذلك حتى «بحلي زوجاته». وبهذا القرار السخي الكريم، كتب أ. ى. ياكوبفسكي «كسب تيمور شعبية كبيرة بين مساعديه العسكريين، وفي المقابل اكتسب حسين عدداً غير قليل من الأعداء من بين ذوي المكانة».

الأخرى، أعيد تقدمها، وواجه مشاة المحاربين نيران الرماة العاصفة. وقد وقع الكثير من القتلى والجرحى في صفوف المغول، فبادر الياس خوجة إلى الانسحاب من المدينة. ويحكي شرف الدين عن مأساة تعرض لها المغول، حيث وقعت خيولهم صريعة مرض القرحة المميتة، فمات منها عدد كبير قُدِّر بثلاثة أرباعها. وفي ظل هذه الظروف، لم يعد لديهم القدرة على الانتقال، فأمر الياس خوجة قواته بالاسراع في مغادرة المدينة.

وهكذا، انتهت حملة الخانات المغولستانيين هذه، على أقاليم ما وراء النهر بدون إحراز أي نجاح.

وقد عرفت هذه الحملة، باسم حرب ساريدارلر (صعاليك) سمرقند.

ولم تورد المراجع شيئاً عن أي اجراءات ديموقراطية، اتخذها ساريدارلر. ولدى شرف الدين يزدي هذه العبارة« يا لله !! جاء وقت أصبح المعدم شريفاً». ولعل ذلك يشير إلى أن الصعاليك قاموا بمصادرة جزء من ممتلكات الأثرياء، ووزعوه على المعدمين، كما يبدو أنهم ألغوا الجزية.

وطار نبأ انتصار ساريدارلر (الصعاليك) إلى تيمور بك والأمير حسين، حيث تلقاه تيمور أولاً. فخلال وجوده في ضواحي بالخ، حمل اليه هذا النبأ السعيد عباس بخادر، الذي سبق أن أرسله إلى تمير قاسبوق (البوابات الحديدية)، ضمن مجموعة من مستطلعي الأخبار. ويورد موسيفي معلومة جديرة بالاهتمام، عن أن مولانا زادة نفسه هو الذي أبلغ تيمور بذلك. وعلى أي حال، وأيا كان المصدر، فان تيمور سافر الى شبرتو حيث الأمير حسين، فور بلوغ النبأ، وتداول الأميران في الأمر، وقررا الهجوم على سمرقند في الربيع المقبل من العام ١٣٦٦. وحتى يحين ذلك، فقد رجحا أن من الخير بقاءهما على الضفة اليمنى لأمودايا، لإنجاز بقية التجهيزات. وتحقيقاً لهذا الغرض، استقر الأمير حسين في سالي سراي، بينما قبع تيمور بك في قارش، وخلال هذا الوقت، انتهى من تشييد حصن قارش.

وبانقضاء الشتاء، وطبقاً للاتفاق، توالى توارد الأمراء من مواقعهم الشتوية، متجهين نحو سمرقند، ورابطوا بالقرب منها. وتبعاً لرواية المؤرخين التيموريين،

لأموداريا، في بلدة درجز، على مسيرة أربعة فراسخ من جنوب بالخ. وفي مستهل شهر رمضان ٧٧١هـ (٢٩ مارس ١٣٧٠م)، وبتوجيه من الأمير تيمور، أعلن تنصيب سيورغاتميش أوغلان خاناً. وتعاظمت قوة تيمور بك، مع تقدم اقترابه من بالخ، حيث انضم اليه في الطريق، زاندا تشاشمة أبرده مع محاربي شبرجان. ويضيف شرف الدين، أنه حينذاك، اتحد معه خزارى «خولم»، وحاكم باداخشان شاه محمد، وغيرهما.

وسقطت بالخ في الحادي عشر من شهر رمضان ٧٧١ (١٠ ابريل ١٣٧٠)، بعد يومين من الحصار، وقُبض على الأمير حسين، الذي اختبأ في مئذنة المسجد (الجامع)، الواقع في القسم القديم من المدينة، وأُعدِم.

وهكذا، انتهى صراع الأعوام الطويلة، على ما وراء النهر، بين الأميرين وخرج منه تيمور بك منتصراً.

كيف جرت، في الحقيقة، عملية ضم بلاد ما بين النهرين وتوحيدها، أي الأجزاء الجنوبية الغربية من قبائل أولوس التشاغاتية، سابقاً، في دولة واحدة؟ لا تعطي المصادر سوى القليل من المعلومات عن ذلك. وإن كان معروفاً أنه في المؤتمر القومي، الذي دُعي اليه في عام ٧٧١هـ (يوليو ١٣٧٠م)، في سمرقند، اجتمع كل الأمراء وزعماء قبائل أولوس التشاغاتية، عدا الأمير زندا تشاشمة، حاكم شبرجان. ومن هذه الواقعة نرى أن الاجتماع حصل بطريقة سلمية وبدون أي استخدام للقوة. وبعبارة أخرى، فإن حكام الاقطاعيات، وزعماء القبائل التركية المغولية، القاطنة بين النهرين، والسكان الحضريين، اعترفوا بالسلطة العليا عليهم لسيور غاتميش والأمير تيمور.

وقد كرس المؤتمر القومي العام، الذي عقد في سمرقند، لغرض تشكيل جهاز حكومي مركزي، وبناء القوات المسلحة. وأعلن بالاجماع سمرقند عاصمة للدولة. وبهذا الخصوص، فقد تقرر احاطتها بانشاءات تحصينية، واقامة قصر للحاكم الأعلى فيها، ومبانٍ للهيئات الحكومية. وقد وزعت هذه المشروعات المعمارية على الأمراء، وجعل على رأسهم جميعاً الأمير أق بوغ. كما تم أيضاً حينذاك، تحديد

وأفترق الأميران ، كل إلى قصر حكمه، مُخلِّفين الجفاء محل الثقة، فرحل الأمير حسين الى سالي سراي، وتيمور بك إلى كيش.

وقد تدهورت العلاقة بين الأميرين تماماً بعد الخطاب المقذع، والذي فيه جرت محاولة إلصاق العار بابنة أوردا خاتون، أرملة تارما شيرين خان، وما تبع ذلك من قيام رجال الأمير حسين، في القصر السمرقندي، بترويج اشاعة مؤداها أن الرسالة من تيمور بك، وحقيقة الأمر أنها كانت فعلة الأمير حسين نفسه. وهكذا تطورت العداوة والمكائد من جانب حسين، والموجهة إلى النيل من شخصية تيمور بك، منذ العام ١٣٦٦م، إلى صراع مكشوف. فقام الأمير حسين بجمع الجيش، محتمياً بحصن بالخ، لخوض معركة فاصلة. وهكذا صفع تيمور بك أيضاً في كيش وقارش. وخلال الأعوام من ١٣٦٦م إلى ١٣٦٩م تعرض كلاهما لمحاولات اغتيال من الآخر.

وبحلول العام ١٣٧٠م، بدأ الأمير حسين استنفار الجيش من بالخ وكوندوز وبادخشان، وتوالى توارد الفرسان إلى ضفة أموداريا اليمنى، بلا انقطاع، ومن منطقة ترمذ وصلت تمير قاسبوق (البوابات الحديدية). وما كان ينبغي التهاون هنا، فقرر تيمور بك أن يبادر الأمير حسين بالهجوم، فغادر كيش بجميع ما كان لديه من قوات، وسار على مقدمة الجيش سيورغاتميش أوغلان والأميران مؤيد وحسين بارلاس. ومن ناحية بيا، انقض تيمور على معسكر جيشه الذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ من ترمذ، حيث تزامن وصول سعيد بركة اليها، وهو أحد وجهاء أعيان أندخود، فقام بتسليم تيمور بك «الطبل والراية» «رمز السلطة والملك». ويروي شرف الدين يزدي: «ومنذ ذلك الحين، وحتى وفاته عام ١٤٠٣م، لم يفترق عن تيمور، وأصبح واحداً من مرشديه الروحيين». وقرر الأمير تيمور عبور نهر جيحون (أموداريا) عند مكان أعلى من ترمذ، خلال معبر أوباج، ولهذا اتجه من بيا صاعداً خلال تشاجا نرود. وهنا حضر اليه الأمير جاقو بارلاس مع محاربي قارقاره، والتحم معه ايضاً الأمير كايخسراو، الذي سبق أن فر من خوتالان إلى آلاي، خوفاً من الأمير حسين. وكان التوقف التالي للأمير تيمور، على الضفة اليمنى

حيث استولى، على شبرخان، واقتاد زنداتشاشمة أسيراً إلى سمرقند. وحقق معه الأمير تيمور بنفسه؛ ولكن هذا الأخير وبفضل تدخل جاقو بارلاس، وغيره من الأمراء، عفا عن جميع أخطائه، وفوق ذلك، أهداه معطفاً مطرّزاً بالذهب، وخنجراً مطعّماً بالأحجار الكريمة، وجواداً عربياً أصيلاً، وقافلة جمال، وقطيعاً من الماعز، وقبله في الخدمة.

وبينما انضوت بالخ ونسف وسمرقند وبخارى وفرغانة، تحت لواء تيمور، جلبت له خوارزم الكثير من العناء، وتعين عليه ان يخوض صراعاً دؤوباً، حتى تمكن من اخضاعها بعد خمس حملات.

في السبعينات من القرن الرابع عشر، كانت خوارزم تحت سلطة الأمير الآق أوردي المشهور نانجاديا (قتل في سراي عام ١٣٦١م)، وبذل تيمور عدة محاولات لضم خوارزم بالوسائل السلمية، ففي مارس ١٣٦١م بعث إلى غورغيانج بسفارة على رأسها آلاقا تفاجي، وورد في رسالة حسين صوفي، حاكم خوارزم آنذاك: إن كيات وخيڤاك كانتا خاضعتين لسلطة تشاغاتاي، لكنهما على مدار عدة سنوات ظلّتا دون تمويل (بدون خزانة)، والآن يتعين اعادتهما مع جميع الأقاليم التابعة، إلى سلطتنا». وفي الختام، دعا الأمير تيمور حسين صوفي إلى توثيق عرى الصداقة، وحسن التفاهم.

بيد أن حسين صوفي، وكان رجلاً متكبراً مغروراً، لم يتقبل نصيحة تيمور، ورد بصلف: «أنا أخضعت هذه الولاية بإعمال السيف، واستردادها لن يكون إلا من طريق السلاح». ثم إنه أهان سفير تيمور، الذي بعث به مرة ثانية، شيخ الاسلام جلال الدين كيش، وأودعه رهن الاعتقال. وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى إعلان الحرب.

وحدثت أول حملة لتيمور على خوارزم، في ربيع عام ٧٧٣هـ (١٣٧١م)، حيث استولى على كيات وحاصرغورغيانج. وقد مات حسين صوفي في أثناء الحصار. وأضطر يوسف صوفي، شقيق الراحل ووريثه في الحكم، إلى طلب السلام. وعاد الأمير تيمور إلى سمرقند، بعد أن خطب شيرين بكة، ابنة آداكا صوفي الشهير باسم خانزادة بشيمة، إلى ابنه الأكبر جهان جير.

المهمات والوظائف في الهيئات الحكومية المركزية، وفي الجيش.

وكان لدى الأمير تيمور سبعة وزراء: وزير يشرف على شؤون الأقاليم والشعوب، الوزير الأعلى (وزير أعظم)، ووزير يشرف على القوات المحاربة ويدير شؤونها. وزير تقادجى، ووزير لرعاية أموال المتوفين وممتلكاتهم، أو ممتلكات الذين غادروا أماكن اقامتهم، والحفاظ عليها. وثلاثة وزراء آخرون كانوا مسؤولين عن الأقاليم الحدودية. وانطلاقاً من ذلك، فإن الأمراء: داوود وساربوخا وحسين بارلاس وأق بوغ وحاج محمد شاه و إلتشيبوجا بخادر ودولت شاه بخادر، كانوا معينين في مناصب الوزراء. كما شغل مناصب رؤساء الاتحادات الحربية الكبيرة، الأمراء: جاقو وحاج سيف الدين وعباس واسكندر وأعلم شيخ وألاداكاووتشي وأردشير كاووتشي وقارى أناك، وغيرهم. وعين قادة لقوات الجيش (دار مقد سامي سيباخ) حنيتاي بخادر وشيخ علي بخادر وتوبان بخادر ودوكتا ونجتى شاه وأرسلان ودررا بخادر، وغيرهم. واختير خيتاي بخادر وشيخ علي وأق تيمور كبراء للبخادريين[١٢]. وعلى هذا النحو: «حصل كل حسب كفاءته، على وظيفة ومنصب» كما كتب شرف الدين يزدي.

وقد أخضعت شبرجان، وحاكمها زنداتشاشمة أيضاً في هذا العام ١٣٧٠م.

ولكن ذلك تسبب في متاعب جمة لتيمور. فكما سبق، اعتذر الزندا بحدة عن حضور المؤتمر القومي المشار اليه، ثم انه احتجز بيرشاه أرلانا، وابنه تيلانتشي، عندما عبرا أملاكه خلال سفرهما لحضور المؤتمر، في شبرخان، ثم قتلهما غيلةً. كما احتجز يوسف خوجة سفير الأمير تيمور، وأودعه السجن. وكان هذا تجاوزاً كبيراً. فتوجه اليه الأمير تيمور بنفسه. ولم يكد يصل إلى ترمذ، حتى وافاه زنداتشاشمة بالاعتذار والأسف الشديد، من خلال الأمير أولجامين، وأظهر خضوعه وامتثاله، فقُبِل رجاؤه. بيد أنه بعد رحيل تيمور بجيشه، حنث العهد، وواصل نهب اقاليم بالخ وترمذ. فبعث اليه تيمور بجيشه بقيادة جاقو بارلاس،

---

١٢ ـ بخادر ـ لقب حربي رفيع المستوى، يعني الشجاعة والبسالة الفائقة. (المترجم).

وقد خاض تيمور صراعاً طويلاً وعنيداً ضد حكام قبائل (أولوس) جوتشي (آق أوردة وآلتن أوردة)، ومغولستان، كان الهدف منه، حماية مناطق الأقاليم الشمالية الغربية والشمالية الشرقية للدولة من غارات وحروب السلب والنهب من جانب البدو الرحّل من داشتي كيبتشاك، بالإضافة إلى العمل على إضعاف قبائل (أولوس) جوتشي، وبسط نفوذه السياسي عليها. وفيما يخص مغولستان، فإن لتيمور غرضاً خاصاً هناك، فهذه البلاد كانت خلال الأعوام ٢٧ هـ - ١٣٢٩م، ضمن مكونات تشاغاتاي التي انقسمت إلى جزءين، بعد الكورولات تالاسكي، في العام ١٢٦٩م، وفي سبيل اعادة توحيدها، قاد كثير من الخانات، من التشاغاتاي، الصراع، وقد كان، على الأرجح، السبب الرئيسي لحروب توغلوق تيمور والياس خوجة، ضد حكام ما وراء النهر، خلال الأعوام ١٣٦٠ و١٣٦١ و١٣٦٥م، تحقيق هذا الهدف، كما ناضل تيمور نفسه، في سبيل ذلك أيضاً.

لقد قام الأمير تيمور، على مدى تسعة عشر عاماً (١٣٧١ - ١٣٩٠)، بثماني حملات على مغولستان، ووصلت جيوشه، في الحملات الخمس الأولى منها، إلى تانجي، واسيق كول (= البحيرة الدافئة)، ولكن، في كل مرة، كان الأميران المغولستانيان: قمر الدين وأنكاتيوره، يتمكنان من الهرب، ويختبئان من مطارديهما في كهوف الجبال. فمع مقدم الشتاء، يغيران على أنديجان وسيرام وتركستان. وقد جعلت حملتا تيمور، اللتان قام بهما في عامي ١٣٨٩ و١٣٩٠م، منافسيه عرضة للمتاعب والأخطار: فأولا، سحق أنكاتيورة، ورمى به إلى ما وراء نهر إرتيش، وثانيا، ألحق الهزيمة بقمر الدين نفسه، واستولى على «يولدزكاتا» (= النجمة الكبرى) الشهيرة، المقر الرئيسي لقيادة خانات المغول.

وعلى كل حال، فإنّ هزيمة كل من قمر الدين وأنكاتيورة، لم تكن كاملة تماماً، ولم يتسنّ له إخضاع مغولستان، وتوحيد شطري قبائل (أولوس) جوتشي.

بيد أن صراع تيمور ضد جوتشي كان ناجحاً. فحتى عام ١٣٧٧م تألفت قبائل (أولوس) جوتشي من كيانين مستقلّين (حكومتين أو دولتين) هما: آلتن أوردة (الأورطة الذهبية)، التي كوّنت جناح قبائل (أولوس) جوتشي الأيمن، وآق أوردة

وجرت الحملة الثانية، في شهر رمضان ٧٧٤ هـ (فبراير ١٣٧٣م). وكان سببها المباشر هروب عدد من علية القوم: سلطان محمود بن كايخسراو وأبو اسحق ابن خضير ياسا أوري، ومحمد شاه بخاري، وكذلك تحريض يوسف صوفي لهم على الأمير تيمور. وقطعت هذه الحملة خط سيرها، عند بخارى، حيث أظهر حاكم خوارزم ندماً واعترف بخطأه، وطلب السلام.

وكذلك الحملة الثالثة، لم تبلغ نهايتها، حيث بدأت مع حلول ربيع عام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)، ولكن توقف مسيرها في خاص ميثار، الواقعة بعيد كيت، إثر تمرد أميري تيمور: ساربوج وعلي شاه.

أما الحملة الرابعة، فقد بدأت بسبب نقض يوسف صوفي شروط معاهدة السلام، إذ انتهز فرصة انشغال تيمور بالصراع مع قمر الدين، أحد حكام الولايات المغولستانية، وأوروس خان خان أق أوردة (١٣٦١ - ١٣٧٥م)، وقام بترتيب غارات سطو منتظمة على أملاك تيمور. وكان ذلك في شهر شوال ٧٨٠هـ (يناير - فبراير ١٣٧٩م)، وانتهت بعقد اتفاق سلام.

وقد ذهب سليمان صوفي، حاكم خوارزم الجديد، إلى مدى أبعد، إذ تحالف مع تختميش، واستمر في انتهاك الحدود المشتركة بين خوارزم وأملاك تيمور. وأدى ذلك إلى قيام الحملة الخامسة لتيمور على خوارزم، عام ٧٩٠ هـ (١٣٨٨م)، والتي اختتمت بفرار سليمان صوفي، والاستيلاء على غور غيانج وتدميرها[١٣] بالكامل.

وبأمر من تيمور أجري آنذاك ترحيل مهرة الصناع الحرفيين، إلى سمرقند. وقد خطب بإسمي سيورغاتميش خان، والأمير تيمور. في مساجد غورغيانج، وصكت باسميهما النقود. وبعد تلك الحملة، الخامسة، لم يلحق الجزء الجنوبي الشرقي وحده من خوارزم بتشاغاتاي وهو الذي خضع سابقاً لها، ثم اقتطعه عنوة حسين صوفي في ٦٤هـ - ١٣٦٥م، بل ألحق أيضاً الجزء الشمالي الغربي منها، بـ تشاغاتاي، ليصبح ضمن دولة تيمور.

---

١٣ - بعد انقضاء ثلاث سنوات (٧٩١هـ - ٧٩٣هـ)، أعيد إعمار المدينة، بأمر من تيمور، وذلك طبقاً لما أورده شرف الدين علي يزدي وغيره من المؤرخين.

ذاته، ومنح عتاداً عسكرياً، وسلاحاً كثيراً، وأطلق مرة ثانية إلى جوتشي. وفي هذه المرة أيضاً، أدار الحظ ظهره لتختميش، حيث لحقته الهزيمة في سوران على يدي توكتاكيه، الابن الاكبر لأوروس خان، الذي تصدى له في تحالف مع بعض الجوتشيين. فقد تختميش كل شيء، وبلغ ضفة سرداريا بصعوبة بالغة، وألقى بنفسه في الماء، هربا من مطارديه، وتبع أثره كازانتشي بخادر، فلحق به هناك، ورماه بسهم فأصاب ذراعه. وعبر تختميش النهر، بصعوبة بالغة ودمه يسيل، وفي دغل من القصب، ارتمى فاقد الوعي. ولحسن حظه، صودف، في ذلك الحين، مرور كتيبة تيمورية من هناك بقيادة إيديكو بارلاس، الذي جاء لنجدته، فأتاه وهو بين الحياة والموت، وضمّد جراحه، وحمله معه إلى سمرقند. ووجد لدى تيمور جميل الرعاية، وقام على علاجه خاصّة أطباء تيمور. ثم جمعت له الخيام والمؤن والسلاح، وبعث إلى آق أوردة من جديد. ولم يكن بمفرده في لقائه مع أوروس خان وابنه، إذ قرر تيمور، فجأة، الذهاب بنفسه مع الجيش. وقد توالت، قبيل قرار تيمور هذه الأحداث: وصل الى سمرقند، وتختميش على وشك الرحيل منها، ايديكو أوزبك (إيديجي)، عين أعيان آق أوردة، فاراً من مكائد أوروس خان، وخلال المناقشة، أطلع تيمور على خروج أوروس، طالباً تختميش، من سيجناك، وأنه في طريقه الى ضفة سرداريا. وقد أكد هذه المعلومة سفارة أوروس خان نفسه، التي وصلت على إثر ايديكو أوزبك. وورد في الرسالة، المتضمنة تعبيرات قاسية: «لقد قتل تختميش ولدي[١٤]، وفر هارباً اليكم، سلموه الى قبضتي، وإلا فحددوا مكاناً حيث يمكننا أن نتقارع فيه بالسيف». وجاء رد تيمور هادئاً: أتى تختميش الينا باحثاً عن الحماية، ولهذا لن أسلمه». وهنا وصلت العلاقة بين آق أوردة وحكومة تيمور إلى نقطة حرجة، ومن ثم نشبت الحرب. دهم تيمور معسكراً قرب أترار، في حين بقي أوروس قريباً من سيمناك، على مسيرة أربعة وعشرين فرسخاً بعيداً عن تيمور. وظلا هكذا في موقعيهما مدّة ثلاثة أشهر، لا يتخذ أي منهما قراراً بالتقدم لملاقاة غريمه بادئاً القتال. جرت فقط بعض المناوشات بين حراس المواقع والمستطلعين،

١٤- يقصد توغلوق بوغا.

(الأورطة البيضاء)، التي شكّلت الجناح الأيسر لها. وقد تكوّنت أق أوردة من الجزء الشمالي الشرقي من خوارزم، وشمال القوقاز، واقليم بولغار، وغرب سيبيريا، والقرم. وضمت أق أوردة أسفل مجرى (مصب) سرداريا، والأراضي الواقعة بين يانجي كنت وبين سوراق، والبراري من ضفاف سرداريا حتى أولوتا أو، وسنجير ياغاتشا، وكاراتالا، ونيومين. وخلال سبعينات القرن الرابع عشر، قام أوروس خان، أحد حكام آق أوردة النابهين، بنضال من أجل توحيد اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي وجعلها دولة موحدة قوية قادرة. وبتحقق النهاية الموفقة لذلك الصراع، نجح أوروس خان وغيره من حكام اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، في إملاء إرادتهم، ولزمن طويل، ليس على ما وراء النهر فحسب، بل أيضاً على روسيا وأوروبا الشرقية. ولقد وعى تيمور ذلك جيداً. لهذا، ومنذ باكورة سنوات حكمه، أولى اهتماماً كبيراً لكلّ ما كان يجري في اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، وبذل غاية جهده في سبيل أن لا يدع أحداً يوحّد شطري اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي، وقاد النضال من أجل إضعافها وتحجيمها.

ولتحقيق غرضه هذا، استغلّ تيمور، وباقتدار، الصراع بين الاقطاعيين والخصومات بين العشائر في اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي. وتحقق ذلك له عام ١٣٧٥م، في المؤتمر الشعبي الذي دعا إليه أوروس خان، من أجل تقرير توحيد اتحاد قبائل (أولوس) جوتشي وآق أوردة وآلتن أوردة. وخلال الاجتماع، انبرى من قام ضد مقصد أوروس خان، واتّضح أنّ من بينهم أحد أعوان تيمور، من الأوغلان (العسكريين) الأوزبك، وهو تودي خوجة أوغلان، والد تختميش وحاكم مينج كيشلاق (الألف قرية)، وقد كلفه ذلك غالياً، إذ قتله أوروس خان. وبعد ذلك فر ابنه تختميش، خوفاً على حياته، من آق أوردة، حتى وصل إلى سمرقند، حيث آواه تيمور، وأحاطه بمظاهر التكريم. وبعد مرور بعض الوقت، انضم اليه، وزوّده بالسلاح والخيام، وسلمه الطبل والراية، رمز السلطة العليا، ووجهه إلى آق أوردة، على أمل أن ينتزع العرش من أوروس خان. لكن تختميش هزم على أيدي قوتلوق بوجه بن أوروس خان، وفر من جديد إلى القصر التيموري، حيث قوبل بالترحاب

التركيز على إقامة سلطة في جوتشي، حيث كان هدفه الأساسي تحطيم القدرة الحربية وتحجيم الوزن السياسي لهذه البلاد، لحماية أملاكه، سواءً في ما وراء النهر أو في ايران أو في أذربيجان. وكتب ا. ى. ياكوبفسكي: «لم يكن الهدف من حروب تيمور ضد تختميش الاستيلاء على الأراضي، باستثناء مجموعة من مدن سرداريا، تقع أسفل ساوران (سيجناك - وأترار وياسا)، بل إضعاف جوتشي إضعافاً كاملاً، حيث رأى دوما، في آلتن أوردة الجبارة، تهديداً قائماً لدول آسيا الوسطى». والمؤرخ على حق، وإلا فَلِمَ تنازل تيمور، منذ عام ١٣٩٥م، عن تلك البلدان الشاسعة الغنية لكوبريتشاك أوغلان بن أوروس خان، بعد هزيمة تختميش في «ترك»، عندما استولى على سراي برك وحاج ترخان (استراخان) وسراي تشك، وغيرها من بلاد جوتشي الرئيسة.

ونتوقف قليلا عند حملات تيمور الثلاث هذه، ضد تختميش:

في نهاية ديسمبر ١٣٨٨م، وجه تختميش جيشاً كبيراً إلى ما وراء النهر، بقيادة أليغميش أوغلان، عبر سرداريا، واكتسح معسكر فياتشق ديزاك. وبعد وصول أخبار الحملة الى الأمير تيمور، بعدة أيام، وبصرف النظر عن اشتداد البرد، وغزارة هطول الجليد، وبدون تريث لإتمام جمع كامل القوات، قام لملاقاة العدو. وعند خوجندة انضم إليه أمير زاده عمر شيح ومعه قوات أنديجان، فأحيط بأليغميش من الناحيتين، وحاقت به الهزيمة.

وفي شهر صفر ٧٩١هـ (فبراير ١٣٨٩م)، وصل تيمور إلى بلدة إيكاز، حيث قضى بقية الشتاء وبواكير الربيع التالي، وبمجرد أن تجمعت القوات، من كل الأقاليم، وفي شهر ربيع الأول ٧٩١هـ (بداية مارس ١٣٨٩م)، اجتاز سرداريا، وأذاق تختميش الهزيمة تلو الهزيمة، وطارده حتى دورانج جاكالة وآل تامجا. إلا أن الحملة توقفت إثر تزايد نشاط المغول على حدود ما وراء النهر.

واستؤنفت الحمله، بعد عامين، في ١٣٩١م. وقد استعد لها تيمور استعداداً كبيراً. ولم يكن قد حلّ الربيع بعد عام ٧٩٢هـ (سبتمبر - أكتوبر ١٣٩٠م)، حين

دون وقوع حرب حقيقية. فانصرف أوروس خان الى عمق داشت كيبتشك، ولم يعثر عليه خلال بحث طال مدّة خمسة عشر يوماً، وعندما وصلت قوات تيمور إلى بلدة جيران قميش، كان قد أعلن عن موت أوروس خان، واختيار ابن كويريتشاك أوغلان خلفاً له. أنعم الأمير تيمور على تختميش خان بعرش آق أوردة، وقفل عائداً إلى سمرقند، هذا ما جاء في رواية شرف الدين يزدي. وقد جرت هذه الأحداث أيضاً، طبقاً لرواية مؤلف «ظفرنامة»، في بداية عام ٧٧٨هـ (٢١ مايو ١٣٧٦م). بيد أن تختميش، بعد ذلك كله، لم يثبت على العرش، إذ سرعان ما أطاح به تيمور مالك، ومن جديد، فر هارباً إلى حمى تيمور، حيث قدمت له مساعدة كبيرة، وقامت قوة عسكرية تيمورية، برئاسة غياث الدين تارخان ونيكي كاوتشين، بمرافقته الى سيجناك، واستخلصت له عرش آق أوردة، بقوة السلاح، فرسخ ثبوته عليه هذه المرة.

وكان الأمير تيمور قانعاً بنتائج سير الصراع في آلتن أوردة، إضافة إلى أمله في أن يظل تختميش رجله المخلص على الدوام، منفذاً لسياسته. إلا أن تختميش لم يحقق أمل حاميه ، إذ على العكس، سرعان ما نفّذ توحيد آق أوردة مع آلتن أوردة، وناصب حكومة تيمور العداء. وعاماً بعد عام، ازدادت هوة الخلاف بينهما عمقاً، وتفاقم سوء التفاهم والتعارض بين تيمور وتختميش، الذي عمل ضد ما رتب له تيمور تماماً. وفي محاولاته لاستعادة سالف مجد آلتن أوردة، وعصرها الذهبي خلال حكم أوزبك خان، قام تختميش بعدة حملات، بهدف توسيع رقعة البلاد. فهاجم ما وراء القوقاز وأذربيجان، وفي العام ١٣٨٥م أرسل جيشاً كبيراً للاستيلاء على تبريز. وكانت هذه الأقاليم، حينذاك، خاضعة لسلطة الأمير تيمور. وقد حرض تختميش، كما سبق ، حاكم خوارزم، سليمان صوفي ضد تيمور، وأرسل جيشاً لنهب الأقاليم الحضرية في ما وراء النهر، في حال غياب الأمير تيمور خارجها. وأدى ذلك كله إلى اندلاع حرب بين جوتشي وحكومة تيمور، خلفت وراءها شيئاً غير قليل من الحرمان والنكبات لشعبي البلدين. وقد قاد تيمور الجيش ثلاث مرات ضد تختميش، خلال الأعوام ١٣٨٩ و ١٣٩١ و١٣٩٥م، ولكن بدون

ولهذا الغرض أوفد إلى تختميش سفارة، وجعل على رأسها رجلاً مجرباً ذا وزن، مولانا شمس الدين الماليجي. وكما ذكر شرف الدين يزدي: حاول سفير تيمور، بالنصح والاقناع، استمالة تختميش، ولكنه تخابث، وفي حين كان يتحدث عن المصالحة، استمر في استعداده للقتال. وبهذه الكيفية لم يكن للحرب أن تتوقف. وفي التاسع والعشرين من شهر جمادى الآخرة ٧٩٧هـ (١٦ أبريل ١٣٩٥م)، اتخذ الجيشان، اللذان لا يقل عددهما عن أربعمائة ألف مقاتل، مواقعهما القتالية، استعداداً للمعركة الفاصلة، والتي كانت دموية. وعن ضخامة هذه الموقعة، تشير المصادر إلى أنها غطت مساحة ٣٥ كيلو متراً مربعاً. وقاتل فيها الجانبان ببسالة، ولم يدّخر أحد منهما قوة. وخرج تيمور في نهايتها منتصراً، وفر تختميش ومن تبقّى معه من قواته، وتاه في غابات بلغاريا. تجدر الاشارة إلى أن انتصار تيمور، في كثير من الحالات، يرجع الفضل فيه إلى استخدامه أساليب جديدة في إدارة المعركة، فقبل هذه الموقعة، مثلاً، قسّم القوات العسكرية إلى سبعة فيالق، وجهّز احتياطياً ضخماً من سبعة وعشرين فوجاً. وقد عملت هذه الفيالق السبعة على تقوية المركز ودعاماته الجانبية، وأتاحت الأفواج الاحتياطية، عند اللزوم، دعم هذه أو تلك من الوحدات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كويرتشاك أوغلان بن أوروس خان، كان مرافقاً لتيمور، طوال ذلك الوقت، فأبدى رغبة في تبوُّء عرش أولوس جوتشي، وعندما تجاوز توراتور، أصدر له تيمور مرسوماً بحكم جوتشي، وزوده بفرقة من شجعان الأوزبك، وبعثه الى الضفة اليسرى لنهر الفولغا، وبذلك صار تيمور مطمئناً تجاه الجزء الساحلي الأيسر من جوتشي، في حين بقي جزء آخر غني بموارده الطبيعية، هو الجزء الساحلي الأيمن، ويضم الأراضي الممتدة من نهر الفولغا حتى نهر الدنبر (أوزي، في المصادر الشرقية)، ولهذا قرر إنزال ضربة بهذه الأراضي؛ كذلك، لتحقيق حماية ما وراء النهر، فأرسل إلى هناك جيشاً، برئاسة شمس الدين عباس، أمير زاده بير محمد، توجه إلى أراضي الضفة اليمنى لـ جوتشي. ومضت قوات تيمور، حين ذاك، إلى الضفة الشمالية بنهر الدنبر، واستولت على آنكرمان (ما نكرمان) وآزاك (آزوف)، وبعض أقاليم كوبان والدون. ويروي شرف الدين تفصيل

نقلت القيادة العليا للقوات إلى اقليم تشيناسة، وأعلنت التعبئة العامة. وهنا قضى الشتاء من العام ٩٠ هـ - ١٣٩١م، وفي بداية الربيع، قاد الجيش ضد تختميش. ووافى عند قاراسامان[١٥]، سفارة تختميش، التي عبّر تختميش من خلالها عن عميق أسفه لما بدرمنه، وطلب العفو عن جرائمه، ووعد، مستقبلاً، بالتزام حدود الأدب وقواعد الخضوع. إلا أن تيمور لم يصدق وعوده، وقد كذب مراراً. فاحتجز سفراءه لدى قيادة الجيش، واستمرت الحملة زهاء ستة أشهر من القتال، واختتمت بهزيمة تختميش، في الثامن عشر من يونيو ١٣٩١م، عند بلدة كوندوز تشا، الواقعة بين سامراء وتشتابول، وآبَ تيمور من الحملة بغنائم لا تحصى، وأسرى كثيرين. وقد دوّن تيمور، في ذكرى تلك الحملة كتابة، نقشت على الحجر في أولوتاو، ما زالت محفوظة حتى وقتنا الحاضر، في متحف الدولة في مدينة سانت بطرس برج (متحف الأرميتاج)، بروسيا.

وخرج تختميش من الحرب سليماً معافى. وسرعان ما تمالك نفسه، واستعاد المقدرة الحربية والسياسية لـ جوتشي، كما كانت، وعاد من جديد، يهدد جيرانه، وفي مقدمتهم تيمور ودولته. وحاول أن يغري الظاهر برقوق، حاكم مصر (١٣٨٢ - ١٣٩٩م)، بالصراع ضد تيمور. وتتوافر حول ذلك معلومات مؤكدة لدى المؤرخين العرب مثل المقريزي والأسدي. وفي عام ١٣٩٤م، قام تختميش بغارة على أذربيجان، واحتلت قواته بعض أقاليم شروان، وأجرى العديد من عمليات السلب والنهب والتخريب، إلا أنه لم يجرؤ على خوض معركة يواجه فيها تيمور، وبمجرد ظهور طلائع جيشه، انسحب تختميش إلى مقرّه في داشت كيبتشك. ولكن الأمير تيمور قرر تصفيته، بَيْدَ أنّ قدوم الشتاء، جعله يؤجل القيام بالحملة إلى العام القادم (١٣٩٥م)، وقضى الشتاء في فتح أباد.

وبدأت في السابع من جمادى الأولى ٧٩٧هـ (٢٨ فبراير ١٣٩٥م) حملة تيمور الأخيرة والحاسمة، ضد تختميش. لكنه، وفي أثناء مسيره إلى دربنت، هدأت سورة غضبه، وحاول معالجة الأمور بالسبل السلمية.

---

١٥ - قاراسامان - بلدة على ضفة نهر آريس اليسرى، حالياً قاراأسابان.

فلاديمير[١٦]». وبذلك يمكن القول، أيضاً إن الأمير تيمور لم يدخل مدينة موسكو نفسها، بل لم يكن في نيته أن يفعل. أما فيما يخص روايتي شامي ويزدي، فإنهما لا تطابقان واقع الحال. وكما يشير ياكو بفسكي: «لم يكن لدى شامي ويزدي التصور المطلوب حول جغرافية الأراضي الروسية، وبذلك يكونان قد خلطا بين أراضي ريازان وحدود امارة موسكو».

واستدار الأمير تيمور من أزاك، الى أرض الشركس، حيث جرى سلبها تماماً عقاباً لهم على قيامهم بحرق المراعي، الواقعة بين أزاك وكوبانة، وإرباك القوات التيمورية. ومن عند الشراكسة، قاد تيمور الجيش إلى داغستان، واستولى على حصني كوله وتارس المنيعين. وفي شتاء ٩٥هـ ـ ١٣٩٦م، استولى على أستراخان، وحرقها.

وبهزيمة تختميش، وقهر آلتن أوردة، دعم تيمور، ليس فقط الأوضاع الداخلية في دولته، ولكن، ودون قصد، قدم مساعدة عظيمة إلى روسيا، عجلت بتحررها من النير المغولستاني، واستعادة شرعية حكومتها. «سحق تيمور بترك. واكتسح سراي بركة. وقصم ظهر دولة آلتين أوردة، التي سببت كثيراً من المصائب للروس القدامى، ثم تهاوت آلتين أوردة بعد عام ١٣٩٥م. وقاد تيمور صراعاً ضد آلتين أوردة، من أجل المصالح في آسيا الوسطى، ودون أن يكون له أي اتصال بالأمير المسكوفي، الذي لم يكن على معرفة به. وقد تحققت فائدة كبيرة ليس لآسيا الوسطى فقط، بل لروسيا أيضاً.

ولئن كان لصراع تيمور ضد جوتشي، إلى هذا الحد أو ذاك، طابعاً دفاعياً، بمعنى حماية حدود الدولة التي كوّنها، فإن حروبه مع ايران واذربيجان والعراق وسوريا والهند، حملت طابع السطو. وينبغي ذكر أن مثل هذه السياسة أقامها على أساس حماية الاسلام ونشره. وهنا نصّب تيمور نفسه راعياً للاسلام، يسهر على

---

١٦ ـ مدينة روسية، شمالية، تعتبر مقر الكنائس وعاصمة روحية للبلاد، وخروج الايقونة إلى مكان ما، كان يعني تاكيد مساندة القيادة الدينية ومباركتها لما يجري (المترجم).

تلك الحملة. والذي يثير الاهتمام، ما جاء عن الأوزبك قاطني إقليم انكرمان المذكور، «نهبَ محاربو تيمور، بكياروك أوغلان وقاطنيها من أولوس الأوزبك، وقد قبض على العدد الأكبر منهم، ورحلوا إلى مكان آخر». وكما هو معلوم، فإن شعب الأوزبك، ومنذ القدم، عاش حياة الترحال والتنقل، على الضفة اليسرى لنهر الفولغا، بين بحر الأورال وتومينيا. أما عن الأوزبك الأكرمانيين، فالحديث يجري هنا لأول مرة. فمتى ولأي سبب ظهروا ووجدوا في اقليم أكرمان؟ تصعب الاجابة بالتحديد. ثم انه بعد ذلك، قاد تيمور الجيش إلى أواسط روسيا، وتوغل في أراضي ريازان، واستولى على مدينة بليتس، إحدى أهم مدن ذلك الإقليم، وتوجه ناحية موسكو. لكن المعلومات عن كيفية انتهاء هذه الحملة، غير متوافرة. ويروي نظام الدين شامي وشرف الدين يزدي، ناقلاً عنه، أنه عندما وصل تيمور إلى موسكو، نهب كل الأقاليم، بما فيها المدينة وضواحيها، وقهر قوادها. إلا أن المؤرخين الروس، الذين سجلوا الأحداث المرتبطة بالتاريخ الروسي، لا يوردون شيئاً عن استيلاء تيمور على موسكو. وقد حدث تسجيل مثل تلك الأحداث في بعض صفحات المؤرخين. وطبقاً لنيكولا يفسكي: «انقضّ تيمور، حين ذاك، على الروس بجيش عظيم، واستولى على يليتس، واعتقل أميرها، وأسر عدداً كبيراً من مواطنيها، وقتل عدداً آخر. وإذ علم الأمير فاسيلي دميتريفتش (١٣٨٩ ـ ١٤٢٥م) بذلك، جمع قوات كبيرة، وتوجه ناحية كولامنا، وشرع في عبور نهر أوكا، في حين بدأ تيمور رحلة العودة، بعد أن نهب أراضي ريازان، واتجه إلى الجنوب». مثل ذلك يرويه م. س. سولافييف (١٨٢٠ ـ ١٨٧٩م)، «من عام ١٣٩٥م، وعلى ضفاف نهر تيريك، قاسى تختميش مرارة الهزيمة، واضطر إلى النجاة فراراً في الغابات البلغارية. في حين اقتحم تاميرلان الحدود الروسية، واستولى على يلتيس، وأسر أميرها، واجتاح الجهة الحدودية». ولم يكن ذلك الهجوم فجائياً، إذ كان لدى فاسيلي ديميتريفتش الوقت للاستعداد، فجمع جيشاً كبيراً، ورابط على حدود إمارته، على ضفة ـ نهر أوكا، إلا انه لم يلاق العدو. أما تامرلان، فبعد أن ظل خمسة عشر يوماً في أراضي ريازان، واكتسح ضفتي نهر أوكا، غادر الحدود الروسية، في اليوم نفسه الذي خرج فيه المسكوفيون (أهالي موسكو) لملاقاة أيقونة الأم المقدسة، المرسلة من

العظيم، وجنكيزخان، وغيرهم. لقد كانت أولى ضربات تيمور من نصيب مالك غياث الدين بير علي الثاني، حاكم جيرات (١٣٧٠ - ١٣٨١م)، حيث بعث اليه تيمور، في شتاء ٧٨١هـ (يناير - فبراير ١٣٨٠م)، بالحاج سيف الدين، المقرب اليه، ودعاه لعقد لقاء شعبي. وكان غياث الدين رجلاً طيباً، ولكنه ماكر، استقبل سفير تيمور بالتكريم اللائق، في حين احتجزه لديه في جيرات لفترة طويلة، اشتغل خلالها بجد، في تحصين البلد وتقوية الدفاعات، وتخزين احتياطي من القمح والعلف، وكان واضحاً أنه يستعد لخوض معركة يشتبك فيها مع عدوه القوي. وفي ٦٨٢ هـ (أبريل ١٣٨٠م)، وجه تيمور أمير زاده جهان جير إلى خراسان، على رأس خمسين فرقة، ومعه الأميران حاج سيف الدين وآق بوجا، وغيرهما، فاحتلّ، حينذاك، بالخ وشبرخان وبادجيس. وفي نهاية العام نفسه (فبراير ١٣٨١م) هجم تيمور على خراسان، حيث لم يُبْدِ مالك محمد شقيق غياث الدين، الذي كان في حصن سيراكس، أي مقاومة، وقدم اليه مفاتيح حاميات سراخس. ولم يجد تيمور مقاومة في المواقع الأخرى خلال مسيرته إلى جيرات، مكتسحاً معسكراً في بلدة ميجدالك التي تقع على مسافة احد عشر فرسخاً من عاصمة خراسان. ولم يشرع تيمور في حصار جيرات، و كقائد عسكري خبير، قرر بادئ ذي بدء، أن يقطع خطوط اتصالاتها، فوجه الضربة الأساسية للتحصينات في الأقاليم الأخرى. ومن ثم استسلمت جام كاوسيا دون قتال، في حين أبدت فوشيخ مقاومة جادة.

وأخيراً استولى على جيرات، بعد حصار مكثف وقتال عنيف. وقد كثر عدد القتلى، ووقع قرابة الألفين في الأسر، بيد أن تيمور عفا عنهم، وأصدر تعليماته بإخلاء سبيلهم جميعاً. كما استولى، في حينها، كذلك على توس وكيلات، وفي الطريق إلى توس، في مزار أبي مسلم، حضر زعيم ساريدارلر (صعاليك) خراسان، علي مؤيد، وقدم إلى تيمور فروض الولاء والطاعة، وهذا ما بدر أيضاً من حاكم ماخان،علي بك قورباني. ويرجح بعض المؤرخين، مثل بارتولد وياكوبفسكي، انطلاقاً من تنازله طوعاً عن السلطة، وجود علاقات صداقة قوية بين علي مؤيد وتيمور، إلا أن غالبية المصادر التاريخية لا تؤيد ذلك. ويتضح من رواية شرف الدين

حمايته أينما ضعفت دعائمه، ويعمل على نشره حيثما لم يعرف بعد. وقد وضعته هذه التوجّهات في مرتبة أجلّ من قادة الدين الروحيين. واليك مثلاً، ما ورد في رسالة من سعيد بركة، أحد أصحاب المكانة الروحية الرفيعة، في زمن تيمور، موجهة من قبله إليه في بداية عهد تيمور بالعمل السياسي: «فلينصر الله من نصر دين محمد (صلى الله عليه وسلم)، وليهزم الله من تقاعس عن نصرته، لقد انقضى أكثر من ثمانمائة عام على يوم هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنّه على رأس كل مئة عام، يبعث الله سبحانه وتعالى حاميا وناشراً لدين رسوله المختار، يقيم الدين، ويحيي العقيدة وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). والحمد لله تعالى الذي جعل أمانة تجديد الاسلام ونشره، في المئة الثامنة هذه، من نصيب صاحب القرآن الأمير تيمور». وقد أطلع تيمور زيد الدين أبا بكر تاي أبادي[١٧] على هذه الرسالة، فأعادها اليه مضيفاً إلى حاشيتها: «إلى صاحب القرآن تيمور، القائم على نشر الدين والشريعة، فليؤيده الله. وليكن معلوماً أن تلك المآثر إن هي إلا إنعام من الله إلى منار الدولة، علامة رضائه العظيم، وتكليف علوي بذلك الشأن العظيم، من تجديد الدين ونشر الشريعة. فلتضاعف جهدك، وعلى قدر عملك يعلي الله قدرك». وفي واقع الأمر، حاول تيمور جاهداً توحيد العالم الاسلامي كله في دولة واحدة، تضع حداً، بحسب وجهة نظره، للإخلال بالشرعية والانفراد بالسلطة، في الدول المفردة، وتفسح في المجال للناس أن يحيوا بسلام، وتتيح لهم تبادل الاتصالات، وتقدم التجارة والثقافة. وكيفما كانت الحال، فان حروب تيمور التي خاضها، بكل عنف، بدءاً من عام ١٣٨١م، لم تخلُ من طابع الاستيلاء والتملك، إلا أن ذلك أيضاً، كان من طبيعة ذلك العصر. وقد حتمت ظروف المجتمعات الطبقية،على القواد والحكام، أن يحافظوا على قوتهم واستقلالهم، وذلك من طريق بسط نفوذهم وهيمنتهم الحربية والسياسية على أكبر عدد ممكن من البلاد، ولم يكن تيمور شاذاً في ذلك، وهكذا فعل قبله، ومارس السياسة نفسها الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، وكثير من حكام العرب وقادتهم، ومنهم محمود غازنقي ذلك السلجوقي

---

١٧ - أحد مشاهير رجال الدين - من مواليد تاي أباد، التابعة لجيرات - توفي عام ١٣٨٩م.

تطاول على محصّلي الجباية، فقتلهم عن آخرهم، وقام جنده باجتياح حامية قوامها ثلاثة آلاف، كان تيمور قد جعلها لحماية المدينة والاقليم. وعندما علم تيمور بذلك الحادث وهو في طريقه إلى فارس، عاد إلى أصفهان، وفي سوْرة غضبه، أصدر أمره بضرب أعناق جميع من كانت لهم يد في ذلك. فهب الأصفهانيون للدفاع عن أنفسهم، وحملوا السلاح، غير أنهم هزموا، واستولى تيمور على المدينة. وضربت وقتها رؤوس الجميع، ما عدا الأسياد والموالين وأولئك الذين كانوا على الحياد. ويحكي شرف الدين يزدي، ما يشبه الأساطير، عن أنهم شكلوا برجاً من الرؤوس البشرية فيه سبعون ألف رأس.

وقامت حملة السنوات الخمس (٩٢هـ - ١٣٩٦م)، على ايران، بسبب الاضطرابات ومحاولات الانفصال بين الحكام المحليين (المظفرين) في مازندران وجنوب ايران، ولور الكبرى ولور الصغرى - وقد صاحب هذه الحملة حوادث سطو ونهب.

ومن جملة ما حدث: سويت بلدة أمول بالأرض، من جراء إبدائها مقاومة عنيفة، وجاء في مؤلف «ظفرنامة»: «تحولت إلى حفنة من التراب». وكان الإنجاز الرئيسي لهذه الحملة هو اجتثاث جذور آل مظفري (١٤هـ - ١٣٩٣م)، وكذلك جلايري (١٣٣٦ - ١٤٣٢م). وقضى نحبه في الموقعة، مفوض المظفرين الأخير في فارس، شاه منصور، ومن سلم، اعتقل وقتل. أما بالنسبة للسلطان أحمد (١٣٨٢ - ١٤١٠م)، وهو أحد ممثلي هذه الطبقة المتميزين، فانه لم يستطع إبداء أي مقاومة، فترك مقيدار، وفر هارباً إلى مصر، حيث وجد المأوى والأمان لدى حكامها المماليك، في ذلك الوقت.

وفي تزامنٍ مع هذه الحملة بالذات، كما سبق ذكره، جرت هزيمة تختميش، وأنزلت بـ جوتشي ضربة قلصت مقدرتها الحربية والسياسية.

وجرت حرب تيمور في هندوستان، خلال الفترة من مايو ١٣٩٨م إلى مارس ١٣٩٩، وتبعاً لمؤلف «يوميات حملة تيمور على الهند» الموضوعة بين عامي ١٣٩٩م و١٤٠٣م، والمهداة إلى أمير زادة خليل سلطان (١٣٨٤ - ١٤١١م): قضى تيمور

يزدي، أن ساريدارلر سايزفاز لم يهلكهم إلا مالك غياث الدين، ولهذا فقد سارع علي مؤيد إلى مغادرة مكمنه في توس وقتها أو في كيلات - على قولٍ آخر - بالحضور إلى طرف تيمور وعرض السلام عليه.

وجرت في العام ٧٨٣هـ (٨١ - ١٣٨٢م) حملة تيمور الثانية على ايران، وفيها أخضعت كيلات وتورشيز وسايزفاز (وتركها لعلي مؤيد) ومازندران.

وفي العام ٧٨٥هـ (١٣٨٨م)، تقدم الأمير تيمور إلى سيستان، وأخضع أهم مدنها وحصونها، زراح وزافة وفرخ وبوست، وغيرها.

وقام تيمور في عام ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) بحملة على أستر أباد وأذربيجان، حيث أخضع مدن أمول وساري وسلطانية وبيريزوم.

بذلك أخضع تيمور، خلال الأعوام من ١٣٨١ إلى ١٣٨٤م، الجزء الأكبر من إيران. بيد أنه لم يتوقف عند هذا الحد، بل بعث، بعد ذلك بثلاث حملات كبيرة، إلى إيران وأذربيجان والعراق وسوريا، اشتهرت في التاريخ بـ: حملة السنوات الثلاث، حملة السنوات الخمس، وحملة السنوات السبع، وقد صاحبها الكثير من الدمار وازهاق الارواح.

وخلال زمن حملة السنوات الثلاث (٨٦ هـ - ١٣٨٨م)، استولى على أذربيجان، وفارس. وجرت هجمات على أملاك قارايوسف توركمان (١٣٨٩ - ١٤٢٠م)، وجورستان وأرمينيا (أقليم بحيرة بان). وفي تلك الحملة، يكتب شرف الدين أنه جرت معارك حامية دامية، تحمل فيها الجانبان خسائر فادحة. وكما هو معلوم، فإن تيمور، وجميع المحاربين أمثاله، كانوا لايهاجمون المدن التي تخضع لهم بدون قتال، وتقبل بدفع الجباية مختارة (مال الأمان)، ولا يطلقون محاربيهم فيها، بل يرسلون إليها، فقط جباتهم ومحصّلي ضرائبهم. أما تلك المدن التي تبدي مقاومة جادة ضدهم، فكانوا يعملون فيها نهباً وتخريباً. ومن كان يقع في أيديهم مقاتلاً وفي يده السلاح، يتعرّض لضرب عنقه (في العلن). وأما المواطنون المسالمون فلا يتعرضون للأذى. وهذا ما حدث مثلاً رداً على استفزازات علي كوتشانه، الذي

تيمور محمد سلطان، على رأس فوج مختار، من قلب الجيش، يصحبه احتياطي، إلى مرتفع ذي سيادة استراتيجية، يقع وسط الوادي، وتحتله رماة السلطان بايازيد. هاجم محمد سلطان الرماة، فأزاحهم عن الهضبة، وصار يشكل تهديداً قوياً لقوات الترك الأساسية، كما عمل سلطان الترك على ازاحته منها، فدفع بكامل قلب الجيش إلى ذلك المرتفع، ولم يُبْدِ محمد سلطان أمامه مقاومة تذكر، إذ إن ذلك لم يكن من واجبه، فالغرض الرئيسي لتيمور قد تحقق، وتمت تفرقة جيش بايازيد، وصارت أجنحته مقطوعة الصلة بالقلب. فاستغل تيمور ذلك وطوق كلا الجناحين، ومن ثم أصبح بايازيد محاصراً في ذلك المرتفع. وتعاملت أفواج شاه روح وميران شاه مع ميمنة جيش الترك وميسرته، وسرعان ما فرغت منهما، ثم استداروا جميعاً، لدعم قوات محمد سلطان مطوقين قلب جيش بايازيد. وقد أبدى بايازيد دفاعاً باسلاً، إلا أنه ومع غروب الشمس، كان كل شيء قد اقترب من نهايته. اضطر بايازيد للانسحاب، لكنه لم يستطع ذلك إلا من خلال الممر الصناعي الذي شكله تيمور من رماته، وأرغمه على اللجوء اليه. وخلال فراره منسحباً، تعرض هو وقواته لسيل من سهام الرماة، فلم ينج منهم سوى القليل ومعهم بايازيد، الذي قبض عليه، واقتيد إلى مقر تيمور، حيث قابله بلطف، وأهداه هدايا قيمة، منها ملابس ثمينة، وأطلق سراحه. وقد قضى بايازيد نحبه في الرابع عشر من شهر شعبان ٨٠٥ هـ (٩ مارس ١٤٠٣م)، بعد تلك الواقعة بحوالي ثمانية أشهر.

وقد تلقى تيمور نبأ وفاة السلطان بايازيد وهو في خامين، فأسرع إلى آق سراي، لتقديم العزاء إلى أهله وأقربائه، ولاطف ابنه موسى، وأهداه معطفاً مطرزاً بالذهب، وخنجراً مطعماً بالأحجار الكريمة، ومئة فرس من كرام الخيل الأصيلة، وأسند اليه حكم الأمبراطورية التركية، وأثبت ذلك بمرسوم خاص، دمغه بالختم الأحمر (التمغة)، وفي ذلك الحين، وبأمر من تيمور، نقلت رفات بايازيد، من مقابر شيخ محمد حيران، حيث مدفنه المؤقت، إلى بروسسو، في ضريح خاص، كان قد شيده بايازيد في حياته.

عاد تيمور إلى سمرقند في شهر المحرم ٨٠٧ هـ (يوليو ١٤٠٤م)، وشرع

فصل الشتاء، بعد حملة السنوات الخمس، في وادي أخانجران، بالقرب من طشقند، وكان معلوماً من قبل أن للاسلام وجوداً في بلاد الهند، وفيها تصكّ النقود بشعار الاسلام، ولكن المسلمين فيها محاصرون بالوثنية والمشركين، وفي حين لا يقوم الحكام المسلمون هناك بأي مجهود لدعم الدعوة ونشرها، واقتنعوا فقط بتحصيل الضرائب والجزية من الوثنيين والمشركين، وتركوهم على معتقداتهم. وبناء على ذلك، قرر تيمور اعلان الحرب المقدسة والعمل على سيادة دين الله. وخلال هذه الحرب، جاب تيمور بجيشه الضخم كل أرجاء الهند، بالنار والسيف، يقتلع جذور الوثنية والشرك، ويقضي على ما يُعبد من دون الله. وقد استولى، في قتاله، على غنائم عظيمة، جُلبت إلى سمرقند وكيش، كان من بينها مئة وعشرون فيلا قتالياً، استخدمت فيما بعد، في أعمال التشييد والبناء والحروب.

وكانت حرب السنوات السبع هي الكبرى بين كل الحروب التي خاضها تيمور على مدار تاريخه كله. وقد بدأت في الثامن من شهر المحرم من عام ٨٠٢ هـ (١٠ سبتمبر ١٣٩٩م)، وانتهت في شهر المحرم من عام ٨٠٧ هـ (يوليو ١٤٠٤م). وتم خلالها الاستيلاء على مدن حلب وكومبسة وبعلبك ودمشق، وغيرها من مدن سورية، وبغداد وأويولوستان، من مدن العراق، والجزء الأكبر من تركيا. وآنذاك، قامت قوات تيمور بعدد من الغارات على جورجيا.

أما الانجاز الأكبر لتيمور، فكان انتصاره على سلطان تركيا المغولستاني بايزيد ايلدريم (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م)، بالقرب من أنقرة، في سهل تشيبوك أباد، في يوم الجمعة، التاسع عشر[١٨]، من شهر ذي الحجة عام ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢م). وورد وصف هذه الموقعة، بالتفصيل، لدى شرف الدين يزدي: كانت معركة ضارية، وحرب عوان، تقلبت بين الهزيمة والنصر، إلى أن حدد مسار القتال الأمير تيمور، باستخدام اسلوبه المفضل في المناورة المحوّلة للانتباه. ونستكمل من «ظفرنامة»: كان الوقت ما بعد منتصف النهار، وقد حمي وطيس القتال، فأطلق

---

١٨ ـ طبقاً لإبن عرب شاه: السابع والعشرون، من الشهر ذاته والسنة ذاتها.

الدولة التيمورية إلى حيازات، استخلف عليها حكاماً. فأنعم على ابنه الأكبر جهان جير[١٩] بعرش محمود غزنوي، أي حكم أفغانستان، وأعطى ابنه شاه روح حكم خراسان، واستخلف ميران شاه، ابنه الثالث، على عرش هولاكوخان أي العراق وأذربيجان، وأسند حكم فرغانة الى عمرشيح وذريته من بعده (ميراك احمد، مثلاً). بَيْدَ أن جميع حكام تلك الحيازات الاقطاعية هؤلاء، وإن كانوا قد تمتعوا باستقلاليتهم، الى حد ما، حيث كان لهم الحق في فرض الضرائب والرسوم وتحصيلها، وإصدار القرارات والإدارة، إلا أنهم جميعاً خضعوا للقيادة المركزية العليا، في شخص تيمور نفسه، ووزرائه. وقد نجح تيمور بجعل جميع مواليه الحكام، على ولاء تام له، بفضل ما كان يتمتع به من عقل راجح، وفكر ثاقب، وقبضة حديدية.

وقاد العمل، في الجهاز الحكومي المركزي، وزراء تيمور الأربعة، وكما جاء في «موسوعة تيمور»، فأولهم كان وزير البلاد والشعوب (وزير الرعيات) الذي كان من اختصاصه إعلام القائد الأعظم بأوضاع البلاد وأحوال المواطنين الرعايا، والثاني: أدار الشؤون الحربية، والثالث: أشرف على الممتلكات التي خلّفها أصحابها لأسباب مختلفة، أهمها الحروب، وكذلك شؤون الرحالة والحجاج، أما الرابع: فقد قام على الشؤون الخاصة بقصر الحاكم الأعلى (وزير البلاط). هذا بالاضافة الى ثلاثة وزراء آخرين أداروا شؤون الأقاليم الحدودية. وقد خضع هؤلاء الوزراء السبعة، لرئاسة (ديوان يحيى) وزير الديوان أو كبير الوزراء.

والى جانب الوزراء، وفي المؤسسات القيادية المركزية والأقليمية، كما في دواوين الحكم في جوتشي، عمل مستخدمون حكوميون، في درجات مختلفة، وقد حفظت المصادر، تسميات لوظائف وألقاب، مثل: شيخ الاسلام، والصدر الأعظم (القيم على شؤون وممتلكات الأوقاف)، ودار خاخ (الذي يتلقى الشكاوى وينظر في المظالم)، واتشكي (خادم حديث بالقصر)، وايشيك أغا (رئيس التشريفات والمراسم)

---

١٩ ـ ورث الحكم بعد وفاته في عام ١٣٧٦م، ابنه بير محمد.

مباشرة في التجهيز للحرب ضد الصين، التي كان حكامها يجاهدون دائماً بادعاء سلطانهم على بلاد ما وراء النهر. وبعد استعدادات استغرقت ثلاثة أشهر، وفي الثالث والعشرين من شهر جمادى الأولى عام ٨٠٧ هـ (٢٧ نوفمبر ١٤٠٢م)، توجه إلى هناك على رأس جيش قوامه مئتا ألف مقاتل.

لكن الحملة قطعت خط سيرها، في إثر وفاة الأمير تيمور، الذي قضى نحبه في أترات، في السابع عشر من شهر شعبان ٨٠٧ هـ (١٨ فبراير ١٤٠٥م).

وقد نجم عن حروب تيمور، كما نجم عن كل الحروب التي قادها زعماء الاقطاع أو القياصرة، كثير من المعاناة والشقاء، سواء لشعوبهم أو لشعوب البلاد التي حاربوها. فتحولت مدن كثيرة، مزدهرة، إلى خرائب. وحُمل من كل تلك البلاد، التي أخضعت، الكثير من الغنائم، ورُحِّل علماء بارزون، وصناع مهرة، ومعماريون فنيون الى سمرقند وكيش وبخارى، وغيرها من مدن ما وراء النهر. ولكن، وفي تميز واضح عن غيره من المحاربين والفاتحين، أثرى تيمور الحياة الاقتصادية لدولته، واجتذب الى ما وراء النهر خيرة الحرفيين والفنيين والمعماريين والعلماء، ليس لأن ما وراء النهر كانت تفتقر إلى مثل هذه الاختصاصات، بل من منطلق أنه كلما قوي المد الثقافي والحضاري، وكلما ثريت الحِرَف، ارتقت الفنون والعلوم. وتجدر الاشارة، إلى أن تيمور بك قاد نهضة معمارية عظيمة، ليس في بلاد ما وراء النهر فقط، أو في خصوصياته المتميزة، فحسب، بل أيضاً في البلاد التي فتحها. وتحفظ المراجع التاريخية الكثير من الأدلة على أنه قام دائماً بتشييد المدن، مثل بايلاكانة، في أذربيجان الايرانية، وغورغيانج وشروان. كما عمل على بناء قنوات جديدة للري في قاراباخ، ويراري موجان، وحرص على تشييد قصور جديدة في ايران وافغانستان، وغيرها من البلاد، وكذلك خطط لشق الطرق وتعبيدها، وإقامة العديد من الجسور والكباري.

كانت دولة تيمور، من حيث حجمها، ضخمة وعظيمة، فقد شملت، إلى جانب آسيا الوسطى، ايران وأذربيجان والعراق وأفغانستان. وقد أدار تيمور دفة الحكم فيها بمساعدة أبنائه وأحفاده وأهل الثقة من الأمراء. وحتى يتسنى له ذلك، قسم

قائد الحرس (كاراؤول بجي). وفي مقابل العرش كان يقف أمراء خيراؤول، وأسفل العرش كان يقف الخدم واليساؤول الخاص، والى يمين العرش ويساره كان يقف دار خاخين لتلقي المظالم والشكاوى.

وحظيت الدولة التيمورية بتقدير عالمي كبير. وطبقا لشهادة شرف الدين يزدي، وكتابات تيمور، وميران شاه وشاه روح، وغيرهم، المحفوظة، حالياً، في المتحف البريطاني بالمملكة المتحدة، والمكتبة الوطنية بفرنسا، والمكتبة السليمانية بتركيا، تطورت العلاقات السياسية والاتصالات التجارية، بين دولة تيمور، وبين دول وبلدان آسيا مثل آق أوردة ومغولستان والصين، وكذلك كان الحال مع مصر، وأيضاً مع دول وبلدان أوروبا مثل ايطاليا وأسبانيا وفرنسا وانجلترا وجنوى وڤينيسيا (البندقية) وغيرها. وقد بلغت تلك العلاقات ذروتها خلال أعوام الثمانينات والتسعينات من القرن الرابع عشر، وفي مستهل القرن الخامس عشر، حيث واكب ذلك تنامي قوة تركيا. فكما هو معلوم ، في العام ١٣٨٩م، حققت تركيا هزيمة القوات الأوروبية المتحدة، في منطقة كوسوف، في صربيا (جمهورية صربيا حالياً، بعد الانفصال عن يوغسلافيا في عصرنا الحاضر)، ونجم عنها أن فقدت صربيا استقلالها وأصبحت إحدى توابع تركيا. وبعد مرور أربعة أعوام، وفي العام ١٣٩٣م، استولت تركيا على بلغاريا وقلاخيا ومقدونيا وڤساليا، واقتحمت القوات الحربية التركية اليونان كذلك. وفي العام ١٣٩٦م، سحقت تركيا، في نيكوبول (بلغاريا) خيرة جيوش أوروبا بقيادة ملك المجر سيجيز موند، الذي أعلن الحرب الصليبية ضد المسلمين، وفي ذلك الوقت، أيضاً، حاصرت جيوش بايازيد كونستانتينوبول (القسطنطينية).

وزحف الخطر الحقيقي من جانب تركيا، مهدداً ليس بيزنطية فقط، بل أوروبا أيضاً. ولهذا اجتمع سفراء بيزنطية وإيطاليا وأسبانيا وغيرهم في قصر تيمور، سائلين اياه العون في صراعهم ضد تركيا. وباختصار، فقد كان ذلك أحد العوامل التي عجلت بالصدام بين هاتين الدولتين التركيتين القويتين، وقد جنت أوروبا، من وراء ذلك، نفعاً ليس بالقليل.

ويساؤول (منفذ الأوامر الشخصية للحاكم)، وكالاكتشي (يختص بالوفاء بكمّ معين من الخراج)[٢٠]، والمحصل، (جامع الضرائب والرسوم)، وتفادجي[٢١] (موظف، عسكري كبير، مسؤول أساساً عن تعبئة القوات المسلحة وتجهيزها)، و كاراؤول بجي (كبير الحراس)، وكوتفال (كومندان أو آمر الحصن)، وجارتشي (منادي، يتولى القيام باعلان الأوامر والأخبار)، ويوت شي (مقيم خيمة السلطان)، والمحتسب (يراقب تطبيق قوانين الشريعة، وضبط الأسعار والأمن في الأسواق)، والمنش[٢٢] (سكرتير)، وواقية نامة تشي (صاحب الأسفار، مسجل الأحداث والتواريخ)، وفراش، وغيرهم. وحكمت المدن والقرى من قبل كاتخودا، وفاروج كالانتاري.

وقد شيدت على طريق القوافل، محطات خاصة، لكل منها ملاحظ (ضابط) ومبنى فيها سار دابه (مبنى للقافلة، مزود بمصدر للمياه).

وتحفظ المراجع التاريخية، شهادات وان كانت قليلة، إلا أنها قيمة، وتلقي الضوء على التقاليد والمراسم التى كانت متبعة، في القصور التيمورية. فإلى اليمين من عرش الحاكم الأعلى، كان يجلس السادة، فالقضاة، فرجال الدين، والعلماء والشيوخ وشيخ الاسلام، وإلى اليسار منه الأمير الأعظم (أمير الأمراء)، فعميد البكوات (بك لربجي)، وأمراء الجيش، والغايونيون، وزعماء قبائل جوتشي والطومانيون، والقوشونيون[٢٣]. وفي مواجهة العرش كان يجلس رئيس الديوان، والوزراء. وخلف هؤلاء اتخذ مجالسهم حكام المدن والقرى والكلانتاري والكاتخدات، والضيوف الأجانب. وخلف العرش يمينا، كان يجلس العسكريون (أوغلان لر ـ المترجم)، وبواسل المحاربين (بخادر لر ـ المترجم)، ويساراً كان يجلس

---

٢٠ ـ عرفت هذه الوظيفة، في بعض النظم الاقتصادية في بلاد الشرق باسم الملتزم (المترجم).

٢١ ـ أي ما يناظر رئيس أركان الجيش حالياً (المترجم).

٢٢ ـ صاحب ديوان الانشاء: مسؤول عن كتابة الرسائل والمحررات ونحوها (المترجم).

٢٣ ـ ألقاب لقواد وحدات وتشكيلات الجيش، فالطومان قائد قوة تعدادها اكثر من ألف مقاتل، والقوشون قائد فوج، أي أنه يدخل ضمن تشكيل الطومان (المترجم).

جعل شاه روح، عند توليه، مدينة جيرات عاصمة للدولة التيمورية، وقد صارت في القرن الخامس عشر مركزاً اقتصادياً وسياسيا وثقافيا كبيراً.

وبعد صراع طويل عنيد استمر خلال السنوات من ١٤٠٥ الى ١٤٠٩م، نجح شاه روح في توطيد سلطانه على بلاد ما وراء النهر. وقبيل رحيله الى جيرات، في السادس عشر من شهر شعبان عام ٨١١ هـ (٧ يناير ١٤١٠م)، نصَّب ابنه البكر أولوغ بك، حاكما على ما وراء النهر وتركستان، وأقطع ابن اخته ميرزا محمد جهان جير خيسارى شادمان، وأسند إلى ميرزا ميراك احمد بن عمر شيخ حكم فرغانة خلفاً لأبيه.

ولم تنقضِ ثلاثة أشهر كاملة، بعد تقلد أولوغ بك سلطة الحكم في ما وراء النهر وتركستان، حتى قام ضده الشيخ نور الدين، وميرزا محمد جهان جير. وقد كان تنصيب أولوغ بك شكلياً فقط، حيث إن الشيخ نور الدين كان قد فرغ لتوه من توطيد سلطانه على تركستان، ولهذا لم يعترف برئاسة أولوغ بك له، بل إنه بعث في منتصف شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (١١ أبريل ١٤١١م)، بجيش الى سمرقند. وبالاضافة إلى الخيساريين، وقف الى جانب الشيخ نور الدين آخرون مثل عبد الخالق بن خواري دادا حسين، والأوزبك الرحل من آق أوردة، بزعامة جنكيز أوغلان، الذي كان يخدم لدى تيمور سابقاً. وتقدم أولوغ بك لصدهم ومعه شاه ملك. وقد جرت الموقعة يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (١٤ أبريل ١٤١١م) في مكان يقال له قزل رابات، جنوب سمرقند. وقد حاز النصر فيها الشيخ نور الدين. وفر أولوغ بك ناحية كليف، وتوجه شاه مالك، في بادئ الأمر، إلى قارابقه (الهضبة السوداء ـ المترجم)، ثم اختبأ في جبال ألا كاراج، بين سمرقند وشهر سابز. وهكذا، كان الطريق إلى العاصمة مفتوحاً، فتحرك اليها الشيخ نور الدين ومعه جنكيز أوغلان، في حين وجّه الأمير تاغاي بوجي للاستيلاء على بخارى، كما وجه أمير شيخ حسن لاحتلال حصن كير جين، الواقع على ضفة نهر أموداريا، حيث توقع الشيخ نور الدين أن يكون أولوغ بك مختبئاً فيه.

وفي أثناء استجمام الشيخ نور الدين وجنكيز أوغلان، في إحدى حدائق تيمور،

ويمكن اجمال القول إن نشاط الأمير تيمور وانجازاته تفيد أنّه كان شخصية فائقة التميز، فيها امتزاج موفق بين موهبة رجل الدولة وحنكة القائد الحربي، والمتذوق للفن المعماري، كما كان راعيا عظيماً للعلوم والثقافة. وقد كان للحكومة المركزية التي أسسها، وبخاصة ادارتها، أكبر الأثر في تنشيط الاقتصاد وتطور التجارة والثقافة وازدهار الحضارة. وإلى جانب ذلك، كان تيمور نموذجاً حقيقياً للاقطاعي والشريف، كما أورد ياكوبفسكي: «وضع نظاماً حربياً بالغ الانضباط والصرامة، وطبع جميع نظم الإدارة، بطابع واضح محدد منضبط». وقد كانت حربه ضد تركيا وآق أوردة، ذات نفع ظاهر للروس، حيث إن هزيمة تختميش وما تلاها، حررت روسيا من قهر آلتين أوردة واستبدادها، وهزيمة السلطان بايازيد يلدريم، حررت شعوب البلقان من الاستبداد.

الامبراطورية التيمورية في عهد كل من شاه روح وأولوغ بك

اقتسم كل من شاه روح وأولوغ بك امبراطورية تيمور بينهما، بعد موت الأمير تيمور، الشخصية السياسية الأساسية في حياة الأمبراطورية. بَيْدَ أن هذه الدولة التي كانت أيام تيمور نفسه موحدة نسبياً، وقوية من الناحيتين الحربية والسياسية، في أول زمانها، وحتى عام ١٤١٠م، أضعفتها الحروب الأهلية الداخلية، بين الإقطاعيين المتنازعين، والخصومات فيما بين العائلات والعشائر. فانتهى بها الأمر إلى قيام خليل سلطان (١٤٠٥ ـ ١٤٠٩م) ابن ميران شاه بالاستيلاء على عرش تيمور العظيم، وانفصل عن الامبراطورية الأم، ايران الغربية وأذربيجان، وأعلنت العائلة التركمانية الكبيرة قاراكيونيل استقلالها. وهنا، وكما أشار مؤلفو «تاريخ ايران»: كانت دولة التيموريين محصورة في آسيا الوسطى، بالأقاليم الايرانية خصوصاً (من نهر سغد رور وجبل بشتار كوخ في الغرب). وفي الحقيقة، تمكن شاه روح، بعد عام ١٤١٠م، إلى حد ما، من تحقيق استقرار الأوضاع الداخلية في البلاد، ولكن حالات التمرد والفوضى استمرت في عدد من الانحاء، هنا وهناك، من جانب الحكام في الاقطاعيات مثل سيد علي وبير علي تاز، وغيرهما، كما سيتضح فيما بعد.

وبغض النظر عن كل ذلك، فقد استمر الشيخ نور الدين في صراعه ضد أولوغ بك، متحالفاً في هذا السبيل، تارة مع الأمير عبد الخالق، حاكم سيرام وياتجي، وتارة مع المغول أو الأوزبك الرحل من آق أوردة.

وقد تمكن شاه مالك من فسخ التحالف بين معارضي شاه روح. ولم يعد أمام الشيخ نور الدين سوى التصالح مع أولوغ بك وشاه مالك. وقد توجه برجاء الى جنكيز أوغلان، ليلعب دور الوسيط في عقد هذا الصلح. وبناء عليه، توجه الى سورام احد الوجهاء وهو رمضان أوزبك. بيد أن شاه مالك رفض التحدث عن السلام، ورد سفيره من حيث جاء، معلناً أن المحادثات لن تبدأ إلا عند رد تومان آغا، زوجة صاحب القِران[٢٤] الراحل تيمور، وأخيها، وابنها محمد شاه، بمصاحبة الحرس اللائق. وهنا اقترح الشيخ نور الدين على شاه مالك، أن يتلاقيا وجهاً لوجه، على أن يصطحب كل منهما اثنين فقط من جند الحراسة الخاصة. وعلى هذا صار الاتفاق. ومن ثم عمد شاه مالك الى الدهاء والمكر، فاستمال أحد الحارسين المرافقين له، ويدعى خير كاداك، وأغراه بقتل الشيخ نور الدين حال لقائهما.

وعندما التقى المحاربان العنيدان، في المكان المتفق عليه، قرب سورام، وفي أثناء تعانقهما، تقدم خير كاداك، فاتحاً ذراعيه لمعانقة الشيخ نور الدين بدوره، وبذلك سنحت له الفرصة فقام بطعنه بالخنجر في ظهره وأرداه قتيلاً.

ثم تنحى الشيخ حسن، أخو نورالدين، عن الحكم في سورام، لأولوغ بك، في النهاية، واعترف بالسلطة العليا له. وبعد ذلك، ضم أولوغ بك إلى سلطته ياتجي وسورام، اللتين كانتا سابقاً خاضعتين لسلطة الأمير عبد الخالق.

وفي إبان ذلك الوقت، فسدت العلاقة بين أولوغ بك وشاه ملك، حيث صار الأخير يتصرف بمنتهى الاستقلالية، دون اعتبار لوضع الحاكم الشاب مطلقاً.

وقد ظهر ذلك جلياً، على سبيل المثال، في أثناء سير المحادثات بين ذلك

---

٢٤ ـ صاحب قران ـ (القران: المبارزة = المصارعة) وكان هذا اللقب الرفيع يطلق على الحكام العظام الذين يخوضون الحروب بأنفسهم، مقاتلين وقائدين لجيوشهم (المترجم).

خارج المدينة، وهي باغ دل كوش، في بلدة جيل، بعثا إلى سمرقند بشخص يدعى محمد، يعرض على أهلها تسليم المدينة وحقن الدماء. ولكن القيادات العليا، وكبار رجال الدين، حاج كمال الدين عبد الأول، وشيخ الاسلام خوجه عصام الدين، وقاضي المدينة مولانا صلاح الدين، ومولانا قطب الدين، وميراك دانيشماند، وخوجة فضل الله، وغيرهم، رفضوا عرض الشيخ نور الدين، وأخذوا أمر الدفاع عن المدينة على عاتقهم. ولم تسقط سمرقند، بالرغم من حضور الشيخ نور الدين شخصياً في نهاية شهر ذي الحجة ٨١٣ هـ (٢٦ مارس ١٤١١م)، وتقدُّمِه حتى بوابة شيخ زادة.

ولم يصل نبأ هذه القلاقل الى جيرات إلا في نهاية شهر ابريل، فقصد شاه روح من فوره، في الرابع من شهر المحرم ٨١٣ هـ (٩ مايو ١٤١٠م) الى ما وراء النهر، لاغيا الحملة التي كانت مقررة الى العراق واذربيجان، ضد قارايوسف.

وخلال وقت قصير جداً، سقطت كل بلاد ما وراء النهر، ما عدا سمرقند، وبعض المواقع الحصينة الأخرى، في قبضة الشيخ نور الدين، الذي توجه في حوالي العشرين من شهر مايو ١٤١٠م، الى ترمذ لإخضاعها، واضعاً نصب عينيه هدفين:

الأول: الاستيلاء على هذه المدينة الهامة من الناحيتين العسكرية والسياسية، بالاضافة الى المعابر الواقعة أمام ترمذ وكليف، وطرد أولوغ بك والأمير مزرات منها. أما الثاني: فكان الالتحام، مع جهان جير، القادم إليها من خيسار لقطع الطريق أمام تقدم شاه روح. ثمّ إخضاع سمرقند بعد ذلك. وقد اعتقد، في هذه المرة، أن سمرقند ستنضم اليه كما كان في زمن خليل سلطان، ويصوتون لاختيار الحاكم الأعلى، في صالح من يرشح الشيخ نور الدين، الذي سبق أن وقع اختياره على جهان جير. وبعد أن أرسل كلاً من جنكيز أوغلان وأمير عبد الكريم، لحصار ترمذ، وسلطان بايازيد إلى كليف، توجه الشيخ نور الدين، مصطحباً محمد جهان جير، الى سمرقند، وعند ذلك تمكنا من هزيمة شاه مالك، الذي خرج لصدهما، على مشارف العاصمة. بيد أنّهما، وفي هذه المرة أيضاً، لم يتمكّنا من الاستيلاء على المدينة، حيث أمطر السمرقنديون الغزاة بوابل من السهام، اضطر معها الشيخ نور الدين الى الانسحاب مبتعداً عن أسوار المدينة عام ٨٣٧ هـ (١٤٣٤م).

الأنباء المقلقة من فارس، عن نشوب الحرب بين إبني عمر شيخ: ميرزا اسكندر ورستمان، نتيجة خلافهما حول أصفهان وشيراز. وقبيل مغادرته ما وراء النهر، بعث شاه روح كلاً من شاه مالك، في إثر الشيخ نور الدين وحلفائه المنسحبين إلى أترار، والأمير مزرات، الى خيسار لمناوءة محمد جهان جير.

وأسفرت الأمور عن اعتراف محمد جهان جير بالسلطة العليا لشاه روح، وصار فيما بعد، عام ٨١٥ هـ (١٤١٢م) زوجاً لابنته، واستمر أولوغ بك في حكم خيسار شادمان حتى وفاته دون أن يكف عن محاولة إبعاد ذلك الأمير، المعتد بقوته، والمحب للسلطة، وصنيعة شاه روح، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، عن القصر السمرقندي. وقد قرر أولوغ بك أن يزاول سلطاته باستقلالية، دون الاعتماد على أحد أو مشاركة أي كان.

وانتهز فرصة جفاء وجهاء سمرقند لشاه مالك، خصوصاً بعدما أظهر عدم احترامه لهم، عندما كان الشيخ نور الدين، على أبواب العاصمة. وتأكدت نزعته الاستبدادية، ومن ثم أمطر والده بوابل من الشكاوى في صدد هذا المستحوذ، طالباً منه تنحيته. ولكي يتخلص شاه روح من عداوة أهل الشيخ نور الدين المقتول، وتهدئة حفيظة أمراء ما وراء النهر، الرافضين لسلطة شاه مالك، خصوصاً ابنه أولوغ بك، فإنه قبيل سفره الى سمرقند، أحال شاه مالك الى التقاعد، واصطحبه معه الى خراسان. وقد وصلت في أثره الى جيرات، تومان آغا حيث انعم عليها شاه روح وقضت فيها بقية حياتها.

وهكذا، ومنذ العام ٨١٤ هـ (١٤١١م)، تحرر أولوغ بك من وصاية شاه مالك، وحكم، باستقلالية، ما وراء النهر. إلا أن رأس الأمبراطورية، شاه روح ظل كما كان، حيث كان يجري الدعاء له على المنابر، وتصك النقود باسمه، في جميع انحاء المملكة الشاسعة، ومن بينها ما وراء النهر وتركستان. وتسري، في الأدب التاريخي، قناعة بأن أولوغ بك كان حاكماً متفرداً بالسلطة كاملة، وأنه في جميع تصرفاته كان مستقلاً عن القيادة الجيراتية ولا يعتمد عليها. إلا أنه، ورغم محاولات أولوغ بك وطموحه في الاستقلال بالحكم والاعتماد على نفسه، وهذه أمور ليست محل شك،

الوصي[٢٥] وحاكم مغولستان محمد خان، وكذلك بينه وبين الشيخ نور الدين. أجرى شاه مالك هذه المحادثات بصفة شخصية، وباسمه دون اشارة الى أولوغ بك، الحاكم الشرعي في ما وراء النهر، أو الى شاه روح الحاكم الأعلى في امبراطورية التيموريين. وفي السابع عشر من شهر صفر ٨١٤ هـ (١٢ يوليو ١٤١٠م) حل شاه روح في كليف، عابراً نهر أموداريا، وحينئذ سارع أولوغ بك، الذي كان وقتها محاصراً، الى مغادرة الحصن، ونجح في الانضمام إلى معسكر والده. وباطراد تقدم شاه روح، فتخلت قوات السلطان بايزي عن مواقعها، وكذلك فعلت قوات جنكيز أوغلان، وقوات عبد الكريم، وغادرتها في فوضى، متوغلة في عمق ما وراء النهر. وبعث، بعد ذلك، شاه روح بكل من أولوغ بك وأمير مزرات إلى نسف، وأوكل إليهما تعبئة الجماهير هناك للكفاح ضد الشيخ نور الدين. وينبغي القول هنا، إن سلوك ميراك أحمد، الذي عينه شاه روح، منذ عام مضى، حاكماً على فرغانة، لم يكن على مستوى ما طلب منه. فقد أرسل اليه شاه روح، قبيل توجهه الى ما وراء النهر، سفيراً، يكلفه بوضع قوات الجيش في انديجان وأساكا على أهبة الاستعداد، ويكلّفه أيضاً بتقديم المدد، في أقصى سرعة، الى أولوغ بك وشاه مالك، في قتالهما ضد الشيخ نور الدين، إلا أن ميراك احمد تباطأ في بلوغ ما وراء النهر، ولم يتوجه الى سمرقند إلا بعد أن وصلها فعلاً شاه روح نفسه، علاوة على اصطحابه كتيبة صغيرة، فقط، لا يتعدى أفرادها الخمسمائة رجل.

وجرت الموقعة الحربية، بين كل من شاه روح وأولوغ بك وميراك احمد، من جهة، وبين كل من الشيخ نور الدين ومحمد جهان جير وجنكيز أوغلان، وعبد الكريم، من جهة أخرى، في ذلك المكان، حول قزل رايات، في يوم التاسع من شهر ربيع ..... ٨١٤ هـ (١ يوليو ١٤١١م)، وقد تقاتل الجانبان، طوال النهار ببسالة كبيرة، وتحملا خسائر فادحة. وفي نهاية المطاف كان النصر حليف شاه روح. وفر الشيخ نور الدين الى سورام، ومحمد جهان جير الى خيسار شادمان.

وبعد مرور يومين على تلك الموقعة، دخل شاه روح سمرقند، وأقام فيها ما يزيد على الأسبوع، ثم اضطر الى مغادرتها في ٢٤ يوليو ١٤١١م، إثر وصول

---

٢٥ ـ اشارة الى ان شاه روح عينه لمساعدة ابنه وإرشاده الى السداد (المترجم).

وقد خلّف تيمور ميراثاً طائلاً لذريته، ونجح شاه روح، بمجهود هائل، في الاحتفاظ بزمام الأمور في يديه. ولكنه قضى سنوات حكمه الطويلة، في حملات عسكرية، لم تكن موجهة للتوسع، خلافاً لحملات تيمور، بل للحفاظ على وحدة الامبراطورية وتماسكها. وكان يمكن أن يُرى شاه روح، طيلة هذه السنوات العديدة، في العراق وأذربيجان، حيث قاد قتالاً مريراً ضد تركمان أجوزا قاراكيونل، أو في أفغانستان، محارباً القبائل المتمردة، أو في جنوبي ايران في صراع ضد مرزا اسكندر وبايقاره المنشقيْن، ابني ميران شاه، ومحمد سلطان بن بايسنكور، وغيرهم.

وعلاوة على ذلك، فقد تعززت دولتان بدويتان، نشأتا على الشمال والشمال الغربي للامبراطورية. هما: دولة الأوزبك الرحل، التي تشكلت من بقايا حكام آلتين أوردة، ودولة مغولستان (جيته)، التي ضمّت بين جنباتها القشجر وبيتا آريق (السبعة أنهر)، ووادي إيلاي. وقد شكل بدو الاوزبك، إبان حكم شاه روح وولاية أولوغ بك، قوة حربية و سياسية جادة ومؤثرة. فعلى سبيل المثال، استولوا على جزء من جنوب خوارزم، كان تابعاً في حينها الى تشاغاتاي، وبسطوا سلطانهم حتى ضفاف نهر سرداريا، واضعين بلاد ما وراء النهر، استراباد وجورجيان، تحت رحمة تهديداتهم. أما فيما يخص مغولستان، شأنها شأن آق أوردة، فقد استولى عليها خلال فتنة الحروب الأهلية بين الاقطاعيين، ولكنها ظلت قوية، ومصدراً لتهديد فرغانة وتركستان. وكان التهديد الأهم، بالنسبة للتيموريين، يأتي من الغرب حيث قارايونس التركماني، الذي تنامت قوته عاماً بعد عام، وكذلك من جانب جلال ريد.

على هذا المنوال، كان أولوغ بك ملتزماً، طبقاً لرغبة أبيه الاولى، بأن يواليه، بإرسال ما يلزم من القوات المحاربة. وغني عن البيان، وضع أولوغ بك،من حيث وجوب حصوله على موافقة شاه روح على كل تصرفاته، ويشهد على ذلك سفره الدائم الى خراسان، قبيل اتخاذ أي خطوة جادة. بل كان يحدث، أحياناً، أن يتشاور مع والده في احتمالات وقوع الأحداث، ثم يتناقش معه فيها بعد وقوعها. ومثال

فإن شاه روح لم يحُلْ بينه وبين تحقيق مطمعه، فعهد اليه، على الدوام، بمراقبة الحدود الشمالية للامبراطورية، إضافة الى التزامه بمتابعة إرسال الامدادت الحربية الى والده، وتوطيد مؤسسته العسكرية. وقد صاغ أولوغ بك أفعاله طبقاً لإرادة أبيه، وقدم اليه الحساب، سواء في لقاءاته الشخصية أو في مكاتباته اليه، وعملياً، لم يقطع أمراً دون الرجوع اليه. وكانت هذه سمة مميزة في سياسة شاه روح، الذكي الحريص، الذي لم يشأ أحدٌ من أولاده أو أقربائه، أو أهل ثقته وأوليائه ان يجاوز الحد في التفرد بالسلطة، او الاستقلال بالحكم.

وفي ربيع عام ٨١٧ هـ (١٤١٤م) ارتحل شاه روح ، على رأس جيش كبير إلى أذربيجان لمناوءة قارايوسف، مرسلاً الى أولوغ بك من مازندران، أمراً بأن يسهر على مراقبة الحدود الشمالية للامبراطورية. وفي العام ٤٨٠ هـ (١٤١٧م) أرسل شاه روح قوات محاربة بقيادة كل من محمد جوكي والسلطان عويس، لدعم أولوغ بك ومؤازرته.

وفي العام ٨٤٢ هـ (١٤٣٩م)، رحل محمد جوكي، على رأس قوات كبيرة، الى ما وراء النهر، وعين ألايكا قوقلداش في رئاسة جيوش التيموريين، المرابطة في ميرڤ. وقد نشطت، خلال هذه السنوات بالذات، تحركات الاوزبك الرحل، والمغول، على حدود الامبراطورية، ووقع على كاهل أولوغ بك مسؤولية صعبة وجسيمة، هي الحفاظ على سلامة الحدود الشمالية، والتصدي لغارات الأوزبك الرحل والمغول، على بلاد ما وراء النهر. وقد أسهم أولوغ بك، معنوياً ومادياً، في دعم مؤسسات شاه روح. ففي العام ٨١٥ هـ (١٤١٣م) شاركت قوات محاربة، من بلاد ما وراء النهر، بلغ تعدادها خمسة آلاف مقاتل، بإمرة الأمير موسى أكا، في عمليات شاه روح، للدفاع عن خوارزم ضد الاوزبك الرحل، وكذلك في إبان حملة شاه روح ضد مرزا اسكندر المنشق، وضد التركمان في عام ٨١٦ هـ (١٤١٣م)، أرسل أولوغ بك، من وراء النهر، فيلة وقوات محاربة، مارست فعاليتها هناك في آقا بخادر. كما شاركت قوات ما وراء النهر في الاستيلاء على بادخشان عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧م)، ودعمت حملة شاه روح الثانية مع العراق وأذربيجان، ضد قارايوسف التركماني، في العام ٨٢٢ هـ (١٤١٩م)، حيث ضم الجيش حينئذٍ، أكثر من ألف مقاتل في ما وراء النهر.

(١٤١٤م)، ابنه بايسنكور، وأسندت حكومة أملاك هولاكوخان، وهي غرب ايران والعراق، الى السلطان محمد بن بايسنكور.

وهنا تجدر الاشارة الى ان شاه روح لم يكن على ثقة كاملة بولاته، دون استثناء أولاده وأحفاده، لذلك أوفد إلى كل منهم شخصيات يثق فيها وذات ولاء مطلق له. فمثلاً، عين لدى الأمير عبد الله بن ابراهيم سلطان، حاكم فارس، الشيخ أبو الخير، وعين لدى ميراك احمد، حاكم فرغانة، الأمير مزرات. وموسى آكا، ولدى قائد شمس الدين، عين أوتشكارا ويوقال بارلاس، ولدى أولوغ بك، عين شاه مالك، وبعد عزله في عام ١٨٣، عين ناصر الدين خوافي (شقيق الوزير بير احمد خوافي). وكما ذكر بلنسكي، كان رجال السلطة هؤلاء مسؤولين مباشرة أمام جيرات. وكذلك كان الاستقلال المادي، بعيداً عن المنال، إذ كان يتعين إرسال جزء من المدخول على شكل ضرائب سنوية الى خزينة الدولة المركزية. وكانت أي محاولة صغيرة تنم عن عدم الطاعة، تجر وراءها عواقب وخيمة، يتعرض فيها الامراء لعقوبة قد تصل الى حد العزل من حكم الاقطاعية، مثل ما حدث للأمير اسكندر، إذ حرم من ولاية سلطة الحكم على أصفهان وهمدان ولورستان وفارس، من جراء تمرده على السلطة المركزية عام ٨١٧ هـ (١٤١٥م). وقسمت الولاية، مع اقطاعيته هذه، بين أمير زاده روستام وبين ابراهيم سلطان. وبعد مضي عام، عزل بايقاره من حكم أولوس (قم وكاشان وري وستمدار وحتى حدود جيلانة)، وأسند منصبه إلى الياس خوجه. وكذلك، نظير انفراده بالقرار في عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م)، كان أولوغ بك على وشك العزل من ولايته.

وعلى هذا المنوال، ساد الأخذ بنظام الحيازات المستقلة، في صورة ولايات اقطاعية، في عهد شاه روح. وكان حكام الاقطاعيات الولاتية، ومن ضمنهم أولوغ بك، أتباعاً موالين، وإن كانت لهم قصورهم الخاصة وخزائنهم وجيوشهم وأجهزتهم الحكومية.

وتشير المصادر، الى ان نظام حيازة الأراضي وتملكها وإدارتها، وخصوصاً الزراعية منها، في تلك العهود كان سارياً من خلال عدة صيغ: فإلى جانب الأراضي

ذلك، ما حدث خلال الحملة على أذربيجان وأساكا، ضد ميراك أحمد، الذي سياتي ذكره.

وكان تجاوز الابن، وانفراده باتخاذ القرارات، يقودان في العادة إلى مشاكل كثيرة قد يدفع أولوغ بك ثمنها غالياً. فمثلاً، إبان الحملة التي فشلت ضد بوراك خان، الحاكم الاوزبكي، عام ٨٣٠ هـ، كان أولوغ بك على قاب قوسين أو أدنى من العزل عن حكم ما وراء النهر وتركستان، وعاقبه والده بصرامة، وعنَّفه كذلك على سوء معاملته ليونس هانم، التي فرت في العام ٨٣٨ هـ (١٤٣٥م) من مغولستان بسبب تنكيل الاقطاعيين آنذاك.

وهذا يدل بجلاء، على مدى تبعية الحكام الطائفيين، وولائهم ومن ضمنهم أولوغ بك، لرأس الدولة، شاه روح. وقد تفسر نزعات أولوغ بك الاستقلالية، على ما يبدو، بمحاولة التميز، لدى والده، واستعراض مقدرته امام اخوته بايسنكور ومحمد جوكي والآخرين، إضافة الى أنه كان يحاول التشبه بعض الشيء، بجده العظيم، تيموربك.

وبالنسبة للسياسة الداخلية للأمبراطورية التيمورية، احتفظ شاه روح بالنظام الذي كان سائداً في عهد تيمور. وقد وزع شاه روح البلاد، طبقاً لنظام الولايات الاقطاعية، في صورة تقسيمات مستقلة، اقتطعها أبناؤه وأقرباؤه، بالاضافة الى وجود نظام تارخات، أيضاً، وأدار دفة الحكم في الأمبراطورية، بمساعدتهم. فعلى سبيل المثال: في عام ٨١٢ هـ (١٤١٠م)، قلد حكم ولاية أوزجنت (خاصة فرغانة)، ميراك أحمد بن عمر شيح، وولى على خيسار شادمان، محمد جهان جير بن محمد سلطان، وأسند السلطة على أملاك محمود غزنوي، أقاليم كندهار وقابول وغزني وغيرها حتى نهر السند إلى الأمير قائد بن بير محمد، وجعل حكم بلخ وثوخار ستان، وحتى باد خشان، لابنه ابراهيم سلطان، وكما سبق القول، ولى ابنه الأكبر مرزا أولوغ بك، على بلاد ما وراء النهر وتركستان. وكانت أكبر الاقطاعيات بجانب ما وراء النهر، خراسان، ومازاندران، والتي ضمت بين جنباتها توس ومشهد وسمنان ودمجان وخابوشان، وأبيفرد، وهذه نصّب عليها، في عام ٨١٧ هـ

بالاضافة الى حدوث هزيمة أولوغ بك، أمام الأوزبك الرحّل، وفشل صراع شاه روح ضد قاراكيونل. وقد أولى أولوغ بك أهمية كبيرة لفرض رسم التمغة وتحصيله من التجار والحرفيين، ولهذا لا يُتصور أن أحداً من أولئك قد أقدم على إلغاء مثل هذه الضرائب، بحيث إنها بأنواعها المختلفة، شكلت جزءاً رئيساً من دخل الدولة في ذلك الزمن. ولا يوجد في المصادر ما يشير الى إعلان السخط من جانب الشعب، لكن هناك دلائل فردية: فخلال فترة حكم شاه روح، حدث تمرد جديد للساريدارلر في عام ١٤٠٥م، في خراسان، وكذلك حركة متطرفي الشيعة الامامية، والتمرد الشعبي في خوزستان (١٤٤١م).

وقد قدّم شاه روح، وكذلك أولوغ بك، الكثير لتطور الثقافة والحضارة. وصارت جيرات وتبريز وشهرسابز وسمرقند وبخارى وغجدوان، مراكز رئيسية للحضارة والثقافة، وفي هذا الوقت، ازدهر الشعر (شاه قاسم أنور، وبساطي السمرقندي، وخوجة عصمة الله البخاري، ويروندق البخاري، ومولانا باداخش، وخيالي البخاري، وبابا سورة أبي وردة). كما تقدمت العلوم (الشيخ أزاري ويحيى سيباك النيسابوري وسيمي النيسابوري وحافظي أبرو وعبد الرزاق السمرقندي وغيرهم). وكان بايسنكور بن شاه روح حاميا وراعياً للفنون والآداب والعلوم، وقد جمع فريقاً كبيراً من الخطاطين الموهوبين، وفناني تغليف الكتب وإخراجها، ومجلدي المخطوطات، وغيرهم.

وقد أولى الحكام التيموريون، وحاشيتهم المقربون، الإنشاءات المدنية المعمارية اهتماماً كبيراً. ففي إبان عهدي شاه روح وأولوغ بك، شيد إلى جانب دور العبادة، كثير من المنشآت المدنية: رابات وساردابات (لحفظ المياه) وطرق وقناطر وجسور وحمامات، وغيرها الكثير. ولقد أقيم المسجد الجامع، على مستوى فني عالٍ، وبنفقة جوهر شاه بجوم، في مشهد، وكذلك المصلى في جيرات، ومسجد وضريح جاز ددجاه، وغيرها كثير.

وأفرد الابن الاكبر لشاه روح، ميرزا أولوغ بك، اهتماماً كبيراً لتطور العلوم والثقافة وازدهارها. ففي عهده صارت سمرقند وبخارى مركزين لجذب العلماء

المقطعة بالولاية، كانت هناك حالات أخرى مثل: ملكي سلطاني، وملكي خاص، والأملاك الموقوفة، والملكية العامة. وكانت الأراضي من نوعية «سلطاني» حكومية، «وخاص» ملك الأفراد الملاك، «وأراضي الوقف، وغيرها من المشروعات المدرّة للدخول، تابعة لدور العبادة والمدارس والمزارات ودور الدراويش (خاناكا) «والعامة»، مسخرة لخدمة عموم المواطنين، وكان استغلالها جماعياً.

وهناك كثير من الدلائل، في مصادر المراجع، عن وجود الرقيق، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في ما وراء النهر، وعن وضع الأرقاء في المجتمع. وقد كان العبيد يسخرون لاداء الأعمال الشاقة، ويباعون ويشترون، ويوهبون ضمن الوقف هم وأسرهم.

وتخلو المصادر، تقريباً، من الاشارة الى وضع الطبقة العاملة والفلاحين العاملين في الاراضي الحكومية أو الخاصة أو الموقوفة، وكذلك فقراء المدن، ولكن، يمكن التكهن في ظل ما فرض عليهم من ضرائب ورسوم عدّة (مال أو خراج وتوجهات وأواريزات وتمغة وساري شومار وزيتاته وبيجار وغيرها) بأن حياتهم لم تكن رغيدة. وقد تطلبت الحروب المستمرة، والدفاع عن البلاد المترامية، ضد غارات تركمان قاراكيونل والأوزبك الرحل والمغول، بالاضافة الى التشييد المعماري الضخم في جيرات وسمرقند وفي عدد من المدائن الأخرى، في ما وراء النهر، وخراسان في عهدي شاه روح وأولوغ بك، كل ذلك تطلب قدراً هائلاً من الثروات التي جمعت، في معظمها، من رعايا هذه الامبراطورية، بصورة أو بأخرى. ولهذا يغلب الظن، بأنه في ظل تلك النظم، تدنّى حدّ إيراد الأراضي إلى قيمة زهيدة، كما يذكر ب. ب. بارتولد، استخراجاً من «تذكرة» دولت شاه السمرقندي. وتقابلنا دلائل أخرى عن القيمة المنخفضة لإيراد الأطيان الزراعية، حيث وصل خراج الجريب (٠,٤ هكتار) من الاراضي الى «تنجة» واحدة فضة . ويرجح أن أثر ذلك كله كان ظاهرة موقتة، وأن مثل هذه الرسوم شرعت، فقط، في سنوات صراع شاه روح وأولوغ بك ضد المعارضين، ولدعم المؤسسات العسكرية الضخمة.

وقد كانت هذه الضرائب الكثيرة، كمّاً ونوعاً، أحد عوامل سخط الجماهير،

وللأسف، فقد تبدلت تلك العلاقات السلمية، مع مرور الوقت، الى حالة من الحرب. وكان ذلك سمة العلاقات التي أرساها كل من شاه روح وأولوغ بك بعده، مع تركماني قاراكيونل، وجلال إيرية، والأوزبك الرحل، والمغول.

وكان من المحتم على شاه روح وأولوغ بك، وعلى الأقل حتى عام ٨٣٢ هـ (١٣٢٩م). أن يخوضا صراعاً دؤوباً طويلاً مع تركماني قاراكيونل، والأفغان، والأوزبك الرحل من آق أوردة (صاروا يسمون بدءاً من سبعينات وثمانينات القرن الرابع عشر، بـ أولوس أو اقطاعيات، وأحياناً ولايات الأوزبك).

وكان هذا الصراع يدار الى حد، بنجاح، وظل هدفه الرئيسي صد الغارات الجسورة التي كان يقوم بها الأوزبك الرحل على خراسان وما وراء النهر. واضافة الى ذلك، فقد وضع كل من الفريقين، نصب عينيه، هدفاً آخر، ألا وهو بسط سيطرته على الآخر، خصوصاً السيطرة السياسية. وانطلاقاً من هذا، فقد عضد كل من شاه روح وأولوغ بك، كما عضد الأوزبك الرحل، حالات التمرد والحروب الأهلية والقلاقل والصراعات بين المعارضين أو المتنازعين على السلطة، كل في حيازات منافسه. ولقد كان توجه شاه روح وأولوغ بك في هذا الصدد، أكبر منه لدى منافسيهما.

وقد شغلت العلاقات السياسية المشتركة، لبلاد ما وراء النهر مع مغولستان والاوزبكية، مكاناً هاماً في الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة التيمورية، خلال القرن الخامس عشر.

بدأت الفتن والحروب الأهلية، في مغولستان، مباشرة، بعد موت خضر خوجة في العام ١٣٩٩م. ويورد مرزا محمد حيدر، الذي تعتبر كتاباته المرجع الوحيد للتاريخ المغولستاني خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، معلومات قيمة عن الوضع السياسي الداخلي لهذه البلاد. لم يتمكن محمد خالد بن خضر خوجة، من القضاء على تمرد الاقطاعيين، حتى لقي حتفه في نهاية المطاف. ثم قرر شاه روح وابنه، اللذان راقبا الأحداث بيقظة، فرض سلطانهما على قشجر، حيث تولى

والشعراء والخطاطين والنساخ والفنانين والمعماريين ومهرة الصناع والحرفيين. وصار المركز الفلكي، الذي أقامه أولوغ بك، أكاديمية حقيقية في عصرها، وكان انشاؤه خلال الأعوام من ١٤٢٤ إلى ١٤٢٩م، وأصبح مركزاً لتطور العلوم البحتة والرياضيات والفلك. وقد واكب ذلك نهضة كبيرة في علوم الدين والطب واللغة والتاريخ والآداب. وتجدر الاشارة، على وجه الخصوص، الى انجازات أولوغ بك المعمارية، حيث شيد، محاكياً جده العظيم، مساجد رائعة، ومدارس مجهزة، وقصوراً فارهة، بالإضافة الى كرافان سراي، وحمامات لا عدّ لها، في سمرقند وشهر سابز وبخارى، ومدن أخرى في ما وراء النهر.

وقد بقيت تشكيلات الحكومة، وتنظيم المؤسسات القيادية، في الدولة التيمورية، خلال عهدي شاه روح وأولوغ بك، كما هي دون تغيير. وتقابلنا في المراجع التاريخية، التسميات والألقاب والوظائف نفسها، للعاملين في الحكومة، والتي كانت متداولة إبان حكم تيمور، اتشكي ـ اتشك أغا باشا ـ أوتاليك ـ صاحب ديوان ـ صدر ـ تقادجي، كما يطالعنا مصطلح تومان، الأمر الذي يدل على تقسيم البلاد إلى مناطق إدارية، أو دوائر سلطة (تومانات)، كما كان يحدث على عهد المغول وعهد تيمور. وكذلك بقي الهيكل التنظيمي للجيش كما هو: تومانات ـ آلاف ـ مئات ـ عشرات.

واستمرت العلاقات التجارية والاقتصادية وتبادل السفراء (الدبلوماسية)، بين حكومة التيموريين وبلاد: مصر والصين والهند ومغولستان، وعدد من بلدان أوروبا، في عهدي شاه روح وأولوغ بك، ومن بعدهما. ويوجد في مراجع التاريخ: حافظي أبرو وفصيح احمد خوافي وعبد الرزاق السمرقندي، عدد من الآثار الدالة على ذلك. وقد توطدت هذه العلاقات جيداً، مع كل من الصين والهند، على وجه الخصوص، كما توثقت عرى حسن الجوار مع كثير من البلدان الأخرى.

وكان هذا توجهاً مقصوداً، فمثلاً، سفارة عبد الرزاق السمرقندي الى الهند عام ١٤٤١م، وتبادل السفراء مع الصين بين عامي ١٤١٢ ـ ١٤١٣م وأيضاً بين العامين ١٤١٩ ـ ١٤٢٢م.

الأمن التيموري. فلو أخذ أولوغ في الاعتبار ذلك كله، فإنه يمكن توقع مباركة شاد روح للحملة تلك. ويروي عبد الرزاق السمرقندي عن وصف ذلك الاستقبال الرائع الرسمي لأولوغ بك، على مشارف جيرات حينما عاد اليها مباشرة بعد قهر قشجر وإخضاعها، وتلك الاحتفالات الضخمة، التي أقيمت على شرفه واستمرت أياماً، وعن خطب المديح التي ألقاها شاه روح في حقه.

وخلال سنوات حكم ناقش جاهان، حفيد خضر خوجه التي استمرت من عام ١٤١٥ الى عام ١٤١٨م، قامت الى حدٍ ما، علاقات حسن جوار بين ما وراء النهر ومغولستان. وقد تعهد المغول، حينها، بعدم تقديم المساعدات الى البادخشانيين ضد شاه روح أو أولوغ بك ابنه، وعليه رجع شاه بهاء الدين بدون أن يكفل لنفسه تأييد ناقش جاهان، الذي ذهب الى مغولستان خصيصاً لهذا الغرض.

وفي شهر صفر ٨٢١ هـ، بدأت الحرب على السلطة بين ناقش جاهان وواعظ خان حفيدي خضر خوجة، وأدت إلى هزيمة جاهان وقواته. ثم انتقلت السلطة على مغولستان إلى يدي واعظ خان. ووصلت أنباء ذلك الى سمرقند في شهر ربيع الأول ٨٢١ هـ (آبريل ١٤١٨م). وقد أبلغ ذلك الى أولوغ بك صديقه نجاد، حاكم قشجر، فقام لتوّه باطلاق سراح جميع المغول، الذين سبق أن سجنهم في سمرقند منذ عام ١٤١٦م، وحينذاك نال سعيد علي حريته أيضاً بعد قضاء هذه السنوات رهن الاعتقال في سجن علية القوم، في سمرقند. ولا يمكن فهم تصرف أولوغ بك هذا، إلا على اساس أنه محاولة للتدخل في إذكاء حدة الخلافات الداخلية، في مغولستان، وتعضيد واحدة من الفرق الاقطاعية المتضاربة فيما بينها، ضد الأخرى. وفعلاً، ازدادت نار الحرب الأهلية بين حكام الاقطاعات اشتعالاً نتيجة لذلك. وفي نهاية شهر رجب ٨٢٢ هـ (يوليو ـ أغسطس ١٤١٩م)، رفع الأمير الدوجلاتي خوداي داده ومؤيدوه راية العصيان ضد واعظ خان. إن تحرُّك أولوغ بك على رأس جيش عظيم العدد، برفقة الأمير أرسلان خوجة طرخان أويا دجار، ومحمد طرخان، في نهاية شهر شعبان ٨٢٢ هـ (سبتمبر ١٤١٩م)، وبعد أقل من شهر من تمرد خوداي داده، لهو دليل على أن الميرزا نفسه، ودون سواه، قد خطط لهذه العملية.

بيد أن هذه الحملة، وعلى أي حال، لم تبلغ نهايتها. ورجع أولوغ بك الى

الأمر بعد موت الأمير سعيد علي، حفيد خوداي داده العظيم، من قبيلة دوجلات. وكان اخضاع قشجر ضرورياً لأولوغ بك، بسبب رفض ميراك احمد الحاكم الاقليمي على فرغانة، الاعتراف بسلطته، علاوة على مجاهرته بالعصيان، وساعده في ذلك سعيد علي والمغول، بكل أنواع الدعم. وفي عام ٨١٧ هـ (١٤١٥م) حاول أولوغ بك، تحت شعار «عقد الاجتماعات الهامة»، ومن خلاله، حاول عزل ميراك احمد، ولكن لم يتم له ذلك. وعندما وجه اولوغ بك قواته الى انديجان، هرب ميراك أحمد مخلّفاً الحاميات الضرورية في المدن الحصينة: فرغانة وأساكا وأنديجان وأوزخيند، ومضى الى وادي آلاي، ثم واصل فراره إلى قشجر، حيث المغول الذين قابلوه بحفاوة، ثم إن سعيد علي سار معه ضد أولوغ بك. وهكذا، وبعد فرار ميراك أحمد، استولى على فرغانة، وأخضعت كذلك أساكا وأنديجان، دون قتال وولّى عليهما الأميرين محمد تايان وموسى آكا. ثم عاد أولوغ بك الى سمرقند. بيد أنه لم يتسنَّ له الاحتفاظ بفرغانة، حيث استغل ميراك احمد وسعيد علي، غيابه عنها، فهاجما الحاميات التيمورية بالقرب من أذربيجان، وقُتل الأميران المذكوران في تلك الموقعة. ونهب المغول، وقت ذاك، فرغانة، ورحلوا إلى مغولستان، وبرفقتهم ميراك احمد، إلى قشجر.

وتحيَّن أولوغ بك، الظرف المؤاتي لكي ينتقم من المغول وميراك أحمد، ويعزز سلطانه على فرغانة، ويسيطر كذلك على قشجر نفسها. وقد تحقق له مراده في عام ٨١٨ هـ (١٤١٥م)، وبعد وفاة محمد خان، أرسل أولوغ بك الى هناك جيشاً بقيادة الأمراء صديق وعلي تكريت وعلي طاغا، فتم له اخضاع البلاد. وقد أسدى الأمير خوداي داده مساعدة قيمة لأولوغ بك، مكنته من احتلال قشجر. أما ميراك احمد، فقد استدعاه شاه روح الى جيرات، ثم توجه ليقضي بقية حياته في مكة المكرمة، منفياً، حيث لم يرجع من هناك ثانية. وهكذا كان مصير الحكام المنشقين الذين تمردوا على السلطة المركزية التيمورية. ولكن كيف تلقى شاه روح حملة أولوغ بك على قشجر؟ لقد كانت قشجر ذات نفع لشاه روح الذي ظل خلال تلك السنوات يخوض صراعاً ضد اسكندر، شقيق ميراك احمد، الذي قاد تمرداً في فارس، علاوة على تزايد تقرب بهاء الدين، حاكم بادخشان، إلى المغول، الأمر الذي هدد

الصدد، والمعروف أن أولوغ بك ألغى، حينئذ، الحملة التي سبق ان تقرر القيام بها، وقفل راجعاً الى سمرقند. بيد أنه لم يصدق السفراء، وبينهم مالك اسلام وصدر الاسلام، وأمر بترحيلهم معه الى سمرقند، ولم يسمح لهم بالعودة إلا في الثالث عشر من شهر ذي الحجة ٨٢٤ هـ (١٠ ديسمبر ١٤٢١م).عن طريق قشجر. ويتضح كما ذكر ب. ب. بارتولد، أن الحرب الأهلية في مغولستان، قد انتهت لصالح واعظ خان، وقدر له النجاح بالاستيلاء على الحكم فيها.

ويورد المؤرخان محمد حيدر ومحمود بن والي معلومات هامة عن كيفية سير الصراع، في وقتها، بين شير محمد وواعظ خان، على السلطة العليا في حكومة مغولستان. ومنها يتضح أن واعظ خان قد حظي بتأييد رؤساء القبائل، ومن بينهم خوداي داده وسعيد علي، الذي سبق ان هرب من الأسر في سمرقند، حيث كان قد حضر اليها بصحبة كول محمد بن خوداي داده، وتم احتجازهما لأكثر من أربعة أشهر، كأسرى شرف. وأطلق أولوغ بك سراح شير محمد، في السادس عشر من شهر ذي الحجة ٨٢٤ هـ (١٣ ديسمبر ١٤٢١م)، مشيراً عليه بالعودة من طريق قشجر. وكما أوضح توالي الاحداث، فقد ساند أولوغ بك شير محمد في صراعه ضد واعظ خان، وعهد إلى حاكم انديجان الاقليمي، الأمير أبي الليث، وبيرعلي تكريت، أن يقدّما الى حاكم قشجر المساعدة العسكرية اللازمة. وقد استمرت هذه الصراعات طوال أربعة أشهر، وانتهت بانتصار واعظ خان وجبهته. وفي بداية شهر جمادى الاولى ٨٢٥ هـ (٢٣ أبريل ١٤٢٢م)، اعتلى شير محمد، من جديد، عرش مغولستان.

وهكذا، حقق أولوغ بك ما خطط له منذ عام ٨١٩ هـ (١٤١٦م)، بأن يُجلِس على عرش مغولستان أحد صنائعه. بيد أن شير محمد أدار ظهره لولي نعمته، وابى أن يعترف بسلطان أولوغ بك عليه، بل صار يتدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية التيمورية، خصوصاً في قشجر، كما تدل على ذلك حادثة لجوء ابن علي تكريت، حاكم قشجر الاقليمي، إلى مغولستان في العام ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م)، ورفض شير محمد طلب أولوغ بك بتسليمه. وكان ذلك سبباً جديداً لاعلان أولوغ بك الحرب على مغولستان. وتقرر القيام بالحملة في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة ٨٢٧ هـ (٢٦

سمرقند ثانية، من طشقند، وواصل الجيش مسيرته الى قشجر بقيادة محمد طرخان. وكما توضح المصادر عامة، فإن السبب في هذا التعديل يرجع الى الشروع في القيام بالحملة الكبرى التي وجهها شاه روح الى العراق وأذربيجان، اضافة الى الاضطرابات التي حدثت في قشجر، وما ترتب على ذلك من صدور تعليمات مركزية بارسال الامدادات اللازمة، ومن ثم كان أولوغ بك مضطراً إلى تلبية أوامر والده، إلى جانب مساعدته لشاه مالك، في صراعه ضد الأوزبك الرحل، الذين توالت غاراتهم، بانتظام، على خوارزم من جهاتها الشمالية.

لكن هذه الحملة ألغيت بناء على تعليمات شاه روح، اضافة الى أن واعظ خان قد وفق، فيما يبدو، في عقد اتفاق سلام مع أولوغ بك.

وقد احتفظ واعظ خان بالحكم حتى عام ٨٢٨ هـ (١٤٢١م)، واستمر أولوغ بك، بدوره، في تأييد معارضيه. وفي نهاية جمادى الاولى ٨٢٤ هـ (مايو ١٤٢١م)، وصل الى سمرقند جاهان شاه أحد كبار الأمراء الدغلانيين، طالباً المعونة، فأكرم اولوغ بك وفادته، في الوقت الذي وفد فيه كول محمد ابن خوداي داده الشهير، للغرض نفسه.

وتشير الى العداوة المتأصلة بين أولوغ بك وواعظ خان، حقيقة أنه في منتصف شهر جمادى الآخرة ٨٢٤ هـ (١٨ يونيو ١٤٢١م)، انقض أولوغ بك على مغولستان بجيش جرار، في حين وصلت الى سمرقند، وقبيل تحرك القوات، جورشاد أغا، ذات التأثير النافذ في شؤون الدولة، في السادس من مارس ١٤٢١م، بصحبة محمد جوتشي، وقد غادرتها في منتصف شهر جمادى الأولى ٨٢٤ هـ (مايو ١٤٢١م)، محملة بهدايا عظيمة شغلت قافلة كاملة. ويرجح أن أولوغ بك اتفق معها على حملته تلك. وعندما بلغ أولوغ بك في مسيرته قارابولاق، دفع الى الامام بكتيبة استطلاع برئاسة الأمراء اسكندر وخاري مالك وبايزيد، في حين رابطت بقية القوات حتى نهاية الشهر في قارابولاق. وفي أواخر أيام شهر رجب ٨٢٤ هـ (يوليو ١٤٢١م)، وفد على أولوغ بك، في قارابولاق، سفراء شير محمد وعلى رأسهم كل من مالك اسلام وصدر الاسلام، في دعوةٍ لعقد الصلح. ولا تورد المراجع ما تم في هذا

الدولة تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها. وخلال عهد عيسى يوغاخان (١٤٢٧ ـ ١٤٦٢م). خليفة واعظ خان، استعاد المغول، بزعامة الأمير سيد علي، قشجر ثانية من التيموريين. وعلاوة على ذلك فقد شنوا كثيراً من الغارات نهبوا فيها فرغانة وقاندي بارام وسيرام.

واتخذت العلاقات الثنائية، بين التيموريين وطوائف الأوزبك الرحّل، خلال عهدي حكم كل من شاه روح وأولوغ بك، أشكالاً راوحت بين التعاون الاقتصادي وغارات السلب والنهب على المناطق الحضرية في ما وراء النهر وجورجان، والتي غالباً، ما استتبعت قيام حروب قمعية راح ضحيتها الكثير من الجانبين. وبالاضافة الى ذلك فقد دأب كل من الجانبين، شاه روح وأولوغ بك من جهة، وبدو الأوزبك من جهة أخرى، على اضعاف الآخر، ولهذا فقد ساند كل فريق، بقدر ما سمحت به امكانياته، الخصومات والصراعات الداخلية على السلطة، في بلاد كلا الجانبين.

وقد احتلت نشاطات الاغارة والسطو على الجيران المستقرين في الحواضر، مكاناً كبيراً في حياة البدو الرحل. وكانت تجري هذه الغارات، أساساً، في الشتاء، موسم النقص الحاد في أعلاف الماشية ومصادر الرعي، وكذلك في المواد التموينية والغذائية لقاطني تلك الأرجاء القاحلة. كما كانت هذه الغارات تحدث بسبب بداوة الحياة واستيفاءً لاحتياجات الرحل من المتطلبات والمواد. وقد توالت هذه الهجمات، بصفة، منتظمة، كل شتاء بالكيفية الرتيبة نفسها، على القاطنين المستقرين.

ويروي عبد الرزاق السمرقندي، حوادث جرت في فترة حكم عبد اللطيف (١٤٤٩ ـ ١٤٥٠م)، مؤداها أن قاطني الصحارى كانوا يجوسون، كل شتاء، خلال ما وراء النهر، حتى مسافة حوالي خمسة فراسخ (٣٥ كيلومتراً تقريباً) من سمرقند وبخارى. وقد أفرغوا تلك المناطق، وسلبوا أملاك السكان، وأخذوهم أسرى. وقد اتخذ عبد اللطيف الاجراءات الكفيلة لصد هذه الغارات ووقفها، وكان من نتيجتها أن الأوزبك الرحل، كفّوا عن الاقتراب من هذه المدن أكثر من مسافة مائة فرسخ. ويبدو أن عبد اللطيف قد نجح في صد هجمات الأوزبك الرحل، داخل مناطق ما وراء النهر، إلا أن هذا النجاح كان مؤقتاً، إذ بعد موته، إستؤنفت من جديد. وإن كانت مدن عديدة

اكتوبر ١٤٢٣م). فوصل في منتصف الشهر الى شاه روح. وأصدر أوامره بتجميع قوات الجيش من جميع الأقاليم، والمرابطة خلال فصل الشتاء. فقضى الجناح الأيمن من الجيش، برئاسة خاري مالك، والشيخ أبي سعيد، فصل الشتاء في ضواحي أنديجان؛ والجناح الأيسر، بقيادة السلطان عويس بارلاس، وخوجه يوسف وتوكل بارلاس، في كراسامان، بالقرب من أترار، والقلب بإمرة أولوغ بك، في شاه روح.

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول ٨٢٨ هـ (١١ فبراير ١٤٢٥م)، هاجم أولوغ بك مغولستان. ونجح في هزيمة قوات المغول التي كانت برئاسة الأمير ابن ابراهيم وجاهان شاه، في آشيا ـ وآق سو. واستمرت الحملة من شهر شعبان ٨٢٨ هـ (يونيو ١٤٢٥م)، وانتهت بالانتصار التام لأولوغ بك، الذي وصل حينذاك الى موقع يولدز، وفيها شير محمد، فنهبها أولوغ بك وعاد منها بغنائم كثيرة، يذكر عنها مؤلفو القرن السادس عشر، مثل عبد الرزاق السمرقندي وعبد الله بن محمد ابن علي نصر الله، أنه كان من بينها «حجران أخضران كبيران من النفريت، نقلهما أولوغ بك الى سمرقند بعربات خاصة صنعت لهذا الغرض بالذات». وتؤكد بعض المعلومات أنها كانت ثلاثة أحجار، سبق أن نقل تيمور واحداًمنها.

وعاد أولوغ بك الى سمرقند، سالكاً طريق ذهابه نفسه الى مغولستان، وعند عبوره مدينة ألان أوتا، بين حصن سايبوري وديزاك، أمر بنقش العبارة التالية على الحجر: «من افضال السلطان الأعلى العظيم، قيصر القياصرة، ظل الله في الأرض، رافع لواء الاسلام، وحامي الدين، معين الدين أولوغ بك كوراجان، أدام الله حكمه. وقد عبر من خلال هذا المكان، في أثناء مسيرة حملة على بلاد جيته والمغول، في العام ٨٢٨ هجرية».

وكان ذلك أول وآخر انتصار لأولوغ بك. وكما سيتضح فيما بعد، فإن صراعه ضد الأوزبك الرحل، انتهى نهاية غير موفقة.

وفيما يتعلق بمغولستان، وبصرف النظر عن توالي الفتن والاضطرابات خلال عهد واعظ خان (١٤٢٤ ـ ١٤٢٨م)، الحاكم الثاني، والفتن والبلبلة الناجمة عن اقتحام الكاليك في ليبتاساي (السبع أنهر) في مستهل القرن الخامس عشر، فإن

تسلط على حكم قبائل الأوزبك جنكيز أوغلان، الذي أسقطه جبار برده بن تختميش، في بداية عام ٨١٩ هـ (١٤١٦م) . وعلى ذلك فإن مدة حكم قوريتشاق أوغلان، لم تكن طويلة، واستمرت فقط حتى العام ١٨١٠م.

وكما هو معلوم، قاد حكم الأوزبك، خلال عامي ٨٢١ و٨٢٢ هـ (١٤١٨ و١٤١٩م)، بوراك أوغلان بن قوريتشاق أوغلان، وأولوغ محمد (محمد خان لدى الشرقيين) سليل توغا تيمور، وفي المرحلة النهائية، في شهرصفر٨٢٥ هـ (فبراير، مارس ١٤١٩م)، تحقق النصر لأولوغ محمد، في حين فرّ بوراك خان هارباً الى سمرقند، حيث وجد المأوى في قصر أولوغ بك، وقدمت اليه المساعدات اللازمة. وتوجه الى الأوزبك، من جديد، وفي أثره سار اليهم أيضاً، على رأس جيش ضخم، أولوغ بك بشخصه. وفي السابع عشر من شهر محرم ٨٢٢ هـ (١٤ فبراير ١٤١٩م). بلغ أولوغ بك ضفة سرداريا، في مواجهة حصن شاه روح، وفي نهاية الشهر جاوز الى الضفة المقابلة. وفي موقع تمركزه، أبلغه يوراق سكى ولسو، الذي فر قبل ذلك من ولاية أوزبكية، عن الفوضى التي نشبت بين الطوائف والقبائل. وقد أيد هذه الأنباء التجار في ما وراء النهر، حين وصولهم الى هناك. وقد علم شاه روح بذلك أيضاً، عن طريق ابناء خودجالال باخادير، زعيم قبائل كورلادت، الفارين من هناك. لكن أولوغ بك لم يتقدم لأبعد من بورلاق، وفي بداية شهر صفر ٨٢٢ هـ (٢٧ فبراير ١٤٢٠م)، عاد الى سمرقند. ومن جديد، قاسى يوراق أوغلان الهزيمة على أيدي أولوغ محمد، فظل لوقت طويل، شريداً على أطراف القبائل والعشائر الأوزبكية.

وتسترعي الاهتمام حقيقة أنه في موازنة لنقل ابنه، الذي كان يسانده، في هذه السنوات، يوراق أوغلان، ارتبط شاه روح بعلاقات وطيدة مع معارضه أولوغ محمد خان. ولا تشير المصادر الى فحوى المباحثات التي أجراها سفراء أولوغ بك في جيرات. إلا أنه يمكن التكهن بأن أولوغ محمد، أراد من خلال شاه روح، أن يهدم تحالف يوراق مع أولوغ بك. هذا بالاضافة الى أنه حاول تحييد حكومة التيموريين، في صراعه مع معارضيه الأخرين على عرش آق أوردة، أي ولاية الأوزبك. أما فيما يخص شاه روح، فإنه أولاه اهتماماً ظاهرياً، أما في واقع الأمر، فقد أيد الفوضى وانتشار المنازعات الداخلية بين القبائل الأوزبكية.

بفضل مناعة أسوارها، قد تمكنت الى حدٍ كبير من حماية نفسها، فإن المواطنين والقرى عانوا باستمرار، من عمليات السلب والنهب والاكتساح. ويجب ملاحظة أن عمليات الغزو لم تقتصر على البدو والرحل من طوائف الأوزبك، فقط، إذ قام بها أيضاً حكام المناطق الحضرية المجاورة. وقد اصطبغ كثير من حملات تيمور، بصبغة السطو، وكذلك الحال مع أولوغ بك، وفيما بعد، حملات شايباني خان وعبد الله خان الثاني (١٥٨٣ ـ ١٥٩٨م).

وقبل الانتقال الى استعراض العلاقات المتبادلة بين حكومة التيموريين والأوزبك الرحل، يحسن التوقف، قليلاً، عند وضع الطوائف والجماعات الأوزبكية المرتحلة، في بداية القرن الخامس عشر. فكما هو معروف، أن قوريتشاق اوغلان، أحد أبناء أوروس خان، الذي يلقبه المؤرخون الشرقيون: قائد بلاد الأوزبك، كان خلال سنوات صراع تيمور الحاد مع تختميش، قد وجد مع الجوتشيديين الآخرين، مع تيمور قوتلوغ، على سبيل المثال. وبعد انكسار تختميش، عام ١٣٩٥م، في وادي نهر ترك، فإن تيمور، تبعاً لنظام الدين شامي، وشرف الدين يزدي «لدى وصوله الى مكان اجتياز نهر ايتل (فولغا)، المعروف بمعبر تورا تورا، زوّد قوريتشاق أوغلان بن أوروس خان، الذي كان بصحبة فرقة من شجعان الأوزبك، وهم من ضمن العاملين في القصر العالي، وأفردت له مخصصات تليق بالبادي شاه، من معاطف مطرزة بالذهب، ومناطق ثمينة، وأرسله عبر نهر ايتل، وقلده حكم الخانية على أولوس جوتشي».

غير أنه، وكما أوضحت الأحداث التالية، في قبائل جوتشي (أولوسي)، وعلى وجه الخصوص في آق أوردة، تقلد الحكم جوتشي آخر، كان قد أرسل معه، هو تيمور توغلوغ (١٣٩٥ ـ ١٤٠٠م). ويبدو أن قوريتشاق أوغلان، حكم في ذلك الوقت الطوائف الأوزبكية. ونظراً لعدم توافر المراجع بهذا الخصوص، فإنه لا يعلم على وجه التأكيد كيف جرت قيادته للأوزبك، وكم من الوقت دامت، وهل شملت سلطته كل القبائل والجماعات. وتوضح فيما سبق بيانه عن الأحداث المرتبطة بصراع شاه روح وأولوغ بك مع الشيخ نور الدين، أنه في عام ٨١٢ هـ (١٤١٠م)،

وقد وثق أولوغ بك بأن صار لديه الآن، رجله في أولوس الأوزبك. لكن يوراق خان، شأنه شأن شير محمد خان، لم يحقق أمل أولوغ بك. فبعد أن أصبح، بمساندة أولوغ بك، على رأس السلطة في الأوزبك، بدأ في استبعاد منافسيه على السلطة العليا تدريجاً، كما احتل عدداً من أقاليم آق أوردة، لبعض الوقت. وطبقاً لما ورد في المراجع، تصادم يوراق أوغلان، في تلك السنوات، مع منافس آخر هو كيبك خان (كويدادات) ابن تختميش، وأسقطه. وفي مدونة التاريخ لدى نيكولوفسكي. تحت رقم ٦٩٣٠ لعام ١٤٢٠م يطالعنا: «في ذلك العام، من أغسطس يوم الحادي والثلاثين، أسقط القيصر يوراق القيصر كويدادات».

من أمثال هذه المراجع، يمكننا معرفة أن يوراق خان، طوال السنوات من ٨٢٢ الى ٨٢٦ هـ (١٩ ـ ١٤٢٣م)، لم يصل إلى مناطق الأوزبك فحسب، بل إنه قصد، أيضاً، ما وراء نهر الفولغا.

استولى يوراق أوغلان، في صراع مع أولوغ محمد، خلال عدد محدد من السنين من عام ٨٢٦ هـ الى عام ٨٢٨ هـ (٢٣ ـ ١٤٢٥م)، على سراي وعدد آخر من مدن آلتين أوردة. كما تخلص من شخص آخر من المطالبين بالحكم، هو دولت بردة، الذي فر إلى القرم، طبقاً لرواية المؤرخ العربي «العيني» في القرن الخامس عشر.

وفي عام ٨٢٨ هـ (١٤٢٥م)، بلغ يوراق خان حداً من القوة، حيث وصل الى المدائن الواقعة أواسط مجرى نهر سرداريا، تحت السلطة التيمورية. فاستولى في عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٧م) على مدينة سيجناك، عاصمة آق أوردة السابقة، التي ظلت منذ عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٤م) خاضعة لسلطة التيموريين. ولم يقْوَ أرسلان خوجة تارخان، حاكم تركستان التيموري، على مناجزة يوراق، واضطر الى تسليم تلك المدينة الهامة، اقتصادياً واستراتيجياً، إلى يوراق. وقد علل يوراق خان، في رسالة الى أولوغ بك، سبب إقدامه على هذه الخطوة بأن اقليم سيجناك يتعلق، قانوناً، بأملاك ذرية أوروس خان. وفي واحد من اكثر المراجع تشويقاً، وأقلها دراسة، وضعها عبد الكريم التمدوخي، في القرن السادس عشر، نجد اشارة قيمة عن

وبالعودة الى يوراق، فقد استمرت علاقته بأولوغ بك، خلال سنوات «القوزاق الأول»، وفي نهاية شهر شعبان ٨٢٣ هـ (٨ سبتمبر ١٤٢٠م)» حضر الى سمرقند سفير يوراق، صوفي أوغلان، الذي جلب هدايا قيمة لأولوغ بك (طيور صيد مدربة، وخيول أصيلة، ونفائس). ومن هنا، يتضح أن يوراق قد بذل محاولة جديدة للحصول على دعم أكثر جدية من حاميه.

وتلقي هذه التطورات الضوء على سبب وصول رسل أولوغ محمد المشار إليهم، إلى جيرات، في إثر وجود سفير يوراق في سمرقند. وقد أدت الفتنة والصراعات المستمرة، بين اقطاعيي قبائل الأوزبك، الى قصر مدة حكم محمد أولوغ، وقاد هذا الصراع ضده كل من سيد احمد وكتشك محمد. وقد استغل يوراق هذا الوضع، وبدعم من أولوغ بك، استولى على زمام السلطة، وحكم قبائل الأوزبك.

ويروي شير خوند، في إشارة فريدة من نوعها، قصة مثيرة للفضول، ومسترعية للانتباه: بعد الاستيلاء على السلطة في قبائل الأوزبك، مباشرة، وصل الى سمرقند، سفيره جوما دوك أوغلان، ذلك الذي اغتصب السلطة من قبائل شايبان، في عام ١٤٢٦م، وبقي عدة أيام في رحاب قصر أولوغ بك، تحيطه مظاهر التكريم والاهتمام، ثم رحل إلى القبائل (أولوس) الأوزبكية، محملا بهدايا قيمة، إلى يوراق خان. ويورد ميرخوند سرداً تفصيلياً عن تلك الهدايا فهي: معاطف مطرزة بخيوط الذهب. وسيوف، ومناطق مذهبة، وأسراجٌ ثمينة لركوب الخيل، وجياد أصيلة، ومبلغ طائلٌ من المال. وأرسل معه كما طلب، المدعو تافساك أوغلان، الذي ظل لزمن طويل، ضمن خدم أولوغ بك. ورافق السفير، ما وضعه أولوغ بك في تصرفه، من فرق الحرس، مع الطبل والراية إلى يوراق، رمز السلطة العليا.

وفي واحد من المصادر المتأخرة، تطالعنا اشارة مثيرة للفضول عن سفارة يوراق إلى أولوغ بك، يذكر فيها المدعو يوريس «نوريس» أوغلان، أن أولوغ بك، أعاده إلى قبائل الأوزبك، نزولاً عند رغبة يوراق. ويذكر أن أولوغ بك، بدوره، أرسل سفيراً الى هناك، هو أحد أمراء البارلاس. فلو صحّ ذلك لكان يوريس أوغلان، هو غازي باي بن يديج نفسه، الذي ورد ذكره في بعض المصادر باسم غازي نوريس.

٨٣٢ هـ (١٤٢٨م). ولا توجد في المراجع، معلومات محددة، عن ملابسات اغتياله، ولا تُعرف على وجه اليقين، كيف كانت العلاقات المتبادلة بين دولة التيموريين والأوزبك. والظاهر أن النزاعات في أولوس (قبائل) جوتشي السابقة، لم تُتح للأوزبك الرحل، من جديد، فرصة استئناف غارات السطو والنهب على أملاك أولوغ بك وشاه روح. ثم ان أولوغ بك، وحتى آخر عهده في الحكم، لم يقم بأي عمل عسكري جاد، وتفرغ تماماً للعلم.

وبعد انقضاء أربع سنوات، انقضّ الأوزبك الرحل، من جديد، على سمرقند، بقيادة أبي الخير خان، سليل شايبان (نُصِّب خاناً عام ١٤٢٨م). وفي هذه المرة استولوا على الجزء الجنوبي الغربي من خوارزم، وعاصمته أورجنتش (أورخنج). ويذكر مؤلف «تاريخ أبي الخير خان»، بوضوح قاطع، أن أبا الخير، في هذه المرة، عقد العزم على احتلال خوارزم، ولذلك فمن الخطأ القول إنّ القصد من الهجوم كان نهب الاقليم فقط. ولم يتمكن حاكم خوارزم التيموري، الأمير ابراهيم ابن شاه مالك، من تنظيم المقاومة للتصدي لهجمة الأوزبك، الذين، وبدون صعوبة تذكر، استولوا على عاصمة خوارزم. ويضم كتاب «بحر الأسرار» معلومات مفادها أنه عند حصاره أورجنتش، أرسل أبو الخير خان سفراء إلى الأمير ابراهيم، يطالبه بتسليم البلاد، واخضاعها لسلطانه، حيث أنها، وطبقاً لقوله، كانت تابعة لجوتشي خان، مثلاً، وورثته من بعده. وهذا يدعم وجهة النظر السابق ذكرها عن طابع حملة الأوزبك الاحتلالي، على خوارزم. ويتضح من سير الأحداث، أن الوجهاء والزعماء الروحيين في خوارزم، أرغِموا على قبول طلبات أبي الخير خان. وقد نُهبت خوارزم وعاصمتها نهباً تاماً. ويروي مسعود بن عثمان الكوخستاني، أن أبا الخير خان، بعد استيلائه على أورجنتش، «أمر بفتح الخزينة، التي جمعها الحاكم السابق بصعوبة بالغة واهتمام كبير، واقام اثنين من كبار الأمراء على جانبي باب الخزينة، وتوالى دخول قواد الجيش المقربين الى الخان، ثم أفراد قوات الجيش أزواجاً، فيها، آخذين من هناك ما استطاعوا حمله دون مشقة».

وقاد شاه روح، في ذلك الوقت، حرباً ضروساً، ضد تركمان قاراكيونل في

استيلاء يوراق على الأملاك السورداریة التيمورية. وطبقاً لما ورد، وجه يوراق خان، الى هناك، جيوشاً عظيمة العدد، فائقة العدة، مزودة بالمناجيق، وارتحلت، في اثر الجيش خمسة آلاف عائلة من الأوزبك، واستقربها المقام في ضواحي سيجناك.

وقادت تصرفات يوراق خان الاستفزازية تلك، واعتداءاته المقصودة، إلى صدام مسلح مع أولوغ بك. وانتهت المعركة التي نشبت بين أولوغ بك، يسانده محمد جوكي، الذي أرسله شاه روح سنداً لأخيه، وبين يوراق خان، بهزيمة الأخوين الساحقة. ولقد كان انسحابهما فراراً، لدرجة أن القوات التيمورية، تركت على أرض المعركة جميع أسلحتها ومعداتها، وطاردهم الاوزبك حتى ضواحي سمرقند ثم رجعوا الى بلادهم بعد أن نهبوا قرى ما وراء النهر جميعها، الواقعة جنوب سرداريا.

وعلى الرغم من أن شاه روح لم يكن قد تماثل للشفاء بعد، إثر إصابته بطعنة في بطنه، على يد أحد الارهابيين، في ٢٧ فبراير ١٤٢٧م، فقد سار بنفسه على رأس الجيش إلى ما وراء النهر، في العاشر من شهر شعبان ٨٣٠ هـ (٨ يوليو ١٤٢٧م)، مصطحباً معه بايسنكور، بدلاً من أولوغ بك، فيما يرجح، لكنه لم يُوفق. وبناء على طلب أولوغ بك واصراره، أعيد بايسنكور من بالخ، الى جيرات ثانية. ولا توجد في المراجع، معلومات مؤكدة عن عدد أفراد قوات الجيش الذي قاده شاه روح، ولكن المرجح أن عبور تلك القوات على مائتي سفينة، من طريق أموداريا، قد استغرق شهراً تقريباً، نظراً الى ضخامة عددها. وكما اتضح من سير الأحداث بعد ذلك، لم يكن لدى شاه روح النية المؤكدة لاخضاع الأوزبك لحكمه، كما كان مسلك تيمور دائماً، بل كانت تلك مناورة من جانب شاه روخ، قصد بها التحذير والتخويف. إذ يبدو أنه كان يتحاشى مواجهة جديدة مع الأوزبك. ثم غادر شاه روح سمرقند، في الثالث من شهر ذي الحجة (٢٥ سبتمبر ١٤٢٧م)، بعد أن تحرى أسباب الهزيمة في سيجناك، وأقر العقوبات المناسبة لجميع من تسبب في تلك الفضيحة الحربية بمن فيهم أولوغ بك نفسه.

وعلى كل حال، لم يدم حكم يوراق خان الأوزبك طويلاً، حيث قتل في العام

العام حرم التيموريون من جزء كبير منها. ويقول عبد الرزاق السمرقندي: «لم يتمكن الأمير إبراهيم، في هذه المرة، من تنظيم الدفاع عن المدينة، ومن ثم فر هارباً، وخضع سكان تلك الأرجاء لإرادة المنتصر».

وبعد مضي بعض الوقت، تأسست في خوارزم إحدى خانات الأوزبك الرحل، وكان حاكمها مصطفى خان.

تكررت خلال هذه السنوات غارات الأوزبك الرحل على مازندران وجورجان، الأمر الذي ترتب عليه أن شاه روح صار مضطراً للاحتفاظ، هناك، ولمدة عام، بأعداد كبيرة من قوات الجيش. كما تعرضت ايضاً الارجاء الشمالية من الامبراطورية للخطر، ولهذا كان أولوغ بك يضطر، كل شتاء، للبقاء مع جيوشه، إما في بخارى وإما في شاه روح، أو في طشقند. وقد هدد الأوزبك الرحل باجتياح المناطق الحضرية لما وراء النهر وتخريبها، كل شتاء، وكذلك الأرجاء الشمالية من ايران: مازندران وجورجان. ففي عام ٨٤٤ هـ (١٠ ـ ١٤١١م) شنوا غارة على مازندران وتسببوا في خراب كبير لها ومعاناة لسكانها، وأوقعت بقوات الحراسة التيمورية برئاسة خوجة يوسف جليل وشيخ خوجة وغيرهما من أمراء تومان هزيمة شنعاء. وليس هناك شك في أن أولئك المعتدين الذين اسماهم عبد الرزاق السمرقندي «أوزبك قوزاق» هم أنفسهم الأوزبك الذين انفصلوا عن أبي الخيرخان، وترحلوا على الضفة المقابلة لسرداريا، في خوارزم وجنوب تركمنستان.

قضى شاه روح نحبه في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة ٨٥٠ هـ (١٢ مارس ١٤٤٧م) في مدينة ري، دون أن يمهله الأجل لكي يسحق تمرد حفيده سلطان محمد، الذي انتزع السلطة على اقليم فارس منذ عام مضى، وكذلك لم يعلن عن خليفته من بعده، وكان بايسنكور الذكي الهمام المتمرس، الذي علق عليه شاه روح آمالاً كبيرة، قد مات، في حياة والده، عام ٨٣٧ هـ (٢٠ ديسمبر ١٤٣٣م)، كما إن محمد جوكي، المرشح المحتمل لوراثة العرش، لم يعد موجوداً ايضاً، في حين أن أولوغ بك، أكبر الأبناء الموجودين على قيد الحياة، قد تفرغ، في ذلك الوقت، تفرغاً كاملاً للعلم، إلا أنه اعتبر خليفة أبيه الشرعي.

أذربيجان، ولهذا ،يشك في أنه استطاع اتخاذ اجراءات جادة فيما يختص بمواجهة هجوم الأوزبك الرحل على خوارزم.

ولا تشير المصادر مباشرة الى رد فعل أولوغ بك تجاه سقوط خوارزم. ولكن يمكن، من سير الأحداث تفهم ذلك. فحضور أولوغ بك العاجل لمقابلة أبيه في سيراح، في صيف عام٨٣٤ هـ (١٤٣١م)، على الرغم من عدم وجود مبرِّر، كان، على الأرجح، بسبب القلق تجاه تحركات الأوزبك الرحل الناشطة على حدود ما وراء النهر. فحضوره الى شاه روح كان لمناقشة الوضع وتقدير الموقف لاتخاذ الاجراءات المناسبة للصراع المشترك ضدهم. وشتاءً استقر أولوغ بك في بخارى، وأرسل جيشاً كبيراً، برئاسة أمرائه، إلى جهة داشتا كبتشاك وإلى مغولستان. وكما هو واضح، فقد أدار أولوغ بك، طوال هذه السنوات حروباً دفاعية.

بيد أنه لم يطل أمد امساك الأوزبك بزمام السلطة في خوارزم، وصار من المحتم عليهم مغادرتها. وتفسر سيرة أبي الخير خان ذلك «بمناخ خوارزم الرديء»، ونجد مثل ذلك التفسير في مصادر أخرى، كما لدى المقريزي (القرن الخامس عشر): «في العام ٨٣٣ هـ (٢٩ ـ ١٤٣٠م)، وما سبقه من سنين، ساد في أراضي سراي وداشت وفي براري كبتشاك جفاف جديد، وانتشر وباء فظيع، هلك من جرائه الحرث والنسل، ولم يسلم منه إلا القليل من العشائر وقطعانها». ويتفق في ذلك كل من أ. ى. ياكوبوفسكي وأ. أ. سيميونوف. ويقدم عبد الرزاق السمرقندي تحليلاً آخر، فيقول إن شاه روح أرسل ضد الأوزبك الرحل جيشاً عظيماً، ثم تحتم عليهم مغادرة خوارزم. ويتفق معه في ذلك ب. ب. ايڤانوف. وهناك أيضاً سبب آخر اضطر معه أبو الخير خان إلى مغادرة خوارزم، حيث نشط ضده، في ذلك الوقت، ابناء كيتشك محمد: محمود خان، المرتحلين، آنذاك، في البراري المحيطة بالأورال، وأملاك الحاج طرخان (استراخان)، وبلغ تهديدهم حد الهجوم على قبائل أولوس بزعامة أبي الخير.

قام الأوزبك الرحل بنهب خوارزم كذلك عام ٨٣٩ هـ (١٤٣٥م). ومنذ ذلك

الواحد تلو الآخر، فمنهم من أسرع الى علاء الدؤلي في جيرات، ومنهم من ارتحل إلى عبد القاسم بابور في ما وراء النهر. ثم لم يلبث عبد اللطيف أن هزم، بالقرب من نيسابور، أمام السرية القوية التي أرسلها ضده علاء الدؤلي، من جيرات، بقيادة الأمراء الملكيين: صالح وعويس طرخان واحمد طرخان. وقبض على عبد اللطيف، وأحضر الى جيرات، حيث قام علاء بنفسه باستجوابه، ثم أمر بسجنه في حصن اختيار الدين.

ووصلت الى أولوغ بك، من خلال رسول عبد اللطيف، أنباء موت شاه روح وتنصيب علاء الدؤلي على العرش، فسارع بالحضور الى خراسان. وعلى ضفة أموداريا، استمال الى صفه الأمير الملكي أبا بكر بن محمد جوكي، قائد خوتالان وأرخانج وسالي سراي، في ذلك الوقت. ثم اتهمه بالخيانة، وأحضر الى سمرقند حيث أدين وسجن في كوك سراي، وهناك قضي عليه. واتخذ أولوغ سبيله، بعد ذلك، عبر أموداريا، واستولى على بلخ وتشتشكت. وبدأ صراع طويل مرير بين أولوغ بك وعلاء الدؤلي على عرش شاه روح.

وهكذا فإن الامبراطورية التيمورية، التي كانت الى عام واحد خلا، بنياناً متراصاً، صارت مقسمة من جديد، إلى أجزاء بعد موت شاه روح مباشرة. فاستقر لمحمد سلطان الحكم في غرب ايران وفارس، ووقعت جورجان وأستر أباد في قبضة أبي القاسم بابور، وبقيت خراسان وجيرات خاضعتين لسلطة علاء الدؤلي، ووهب أولوغ بك الأراضي الواقعة على ضفتي أموداريا في اقاليم بلخ وخوتالان وكوندوز وأوخانج وسالي سراي وأندخون وشبرجان ومايمن وفاراب، الى عبد اللطيف، أما غرب ايران واذربيجان، فثبت فيه الحكم، من جديد، لجاهان شاه، أحد وجهاء قاراكيونل. ولكن، وفي ربيع عام ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م)، ثارت المواجهة المسلحة، من جديد، بين علاء الدين وأولوغ بك،على تركة شاه روح، وانتهت بانتصار أولوغ بك، في صيف ذلك العام. وطارد أولوغ بك علاء الدين وصولاً إلى جابو شان، حيث عبد القاسم بابور، وإلى حدود جورجان، مخلفاً وراءه كثيراً من القتلى، دون أن يتمكن من التخلص من مناوأة علاء نهائياً، والاستقرار على عرش جيرات.

وكانت رغبة جوهر شاد، العاقلة الداهية المتسلطة، زوجة البادي شاه الراحل، أن تري على عرش البلاد علاء الدولي بن بايسنكور، وإن خشيت اعلان ذلك صراحة. وذلك في حين أحاط شاه روح، في آخر سني حياته، حفيده عبد اللطيف بن أولوغ بك، باهتمام كبير وحب عميق. وقد تميز عبد اللطيف بصفات القائد الحربي المجرب الشجاع، الأمر الذي لا يدع مجالاً للكلام عن علاء الدؤلي أو غيره من الأحفاد الآخرين. ونشير إلى مدى إيثار شاه روح ووزيريه خوجة غياث الدين بير أحمد خوافي وخوجة شمس الدين سمناني لعبد اللطيف تلك الحقائق التي أوردها عبد الرزاق السمرقندي. ففي عام ٨٤٥ هـ (١٤٤١م)، أصرّ شاه روح الكهل، على أن يُنصَّب في جيرات عبد اللطيف، الموجود حينها في سمرقند، وسافرت إلى ما وراء النهر جوهر شاد نفسها لهذه المهمة، في اليوم الرابع من شهر شوال ٨٤٥ هـ (٥ أبريل ١٤٤٢م)، وعادت بصحبته، الى جيرات. «وقد انتظره الحاكم العجوز، وعندما رآه لم يكن لسعادته حدود، كما تصف كلمات السمرقندي. كما يُروى أنه، في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة ٨٥٠ هـ (١٢ مارس ١٤٤٧م)، تدهورت صحة الخاقان سعيد (شاه روح)، وفي ذلك المساء، قصد عبد اللطيف، في سمنان الوزيران: غياث الدين بير أحمد خوافي وخوجة شمس الدين السمناني، وأمامه وضعا الختم على رقعة المرسوم باعلان عبد اللطيف خليفة على العرش، وفي اليوم التالي، وكان شاه روح قد قضى نحبه، جاءه كذلك رسل جوهر شاه للغرض نفسه. من خلال سياستها المزدوجة، تواطأت جوهر شاد مع الأمراء الطرخانيين، في الوقت نفسه الذي بعثت فيه رسلها الى علاء الدين في جيرات، يطالبون باعتلاء عرش جده، دون تقاعس. ونظراً للاضطرابات والقلق اللذين سادا العاصمة، لم يجرؤ علاء على أن يعلن تنصيب نفسه رئيساً للدولة.

ولم يعد أمام عبد اللطيف سوى ان يشغل منصب قائد الجيوش، نزولاً عند اقتراح جوهر شاه. وكان جيش شاه روح، قد أخذ في ذلك الوقت بالتفكك. وتمكن عبد اللطيف، بشق النفس، من إعادة النظام إليه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً.

ولم تمض عدة أسابيع، حتى أخذ الأمراء، تباعاً، في مغادرة مراكز قواتهم